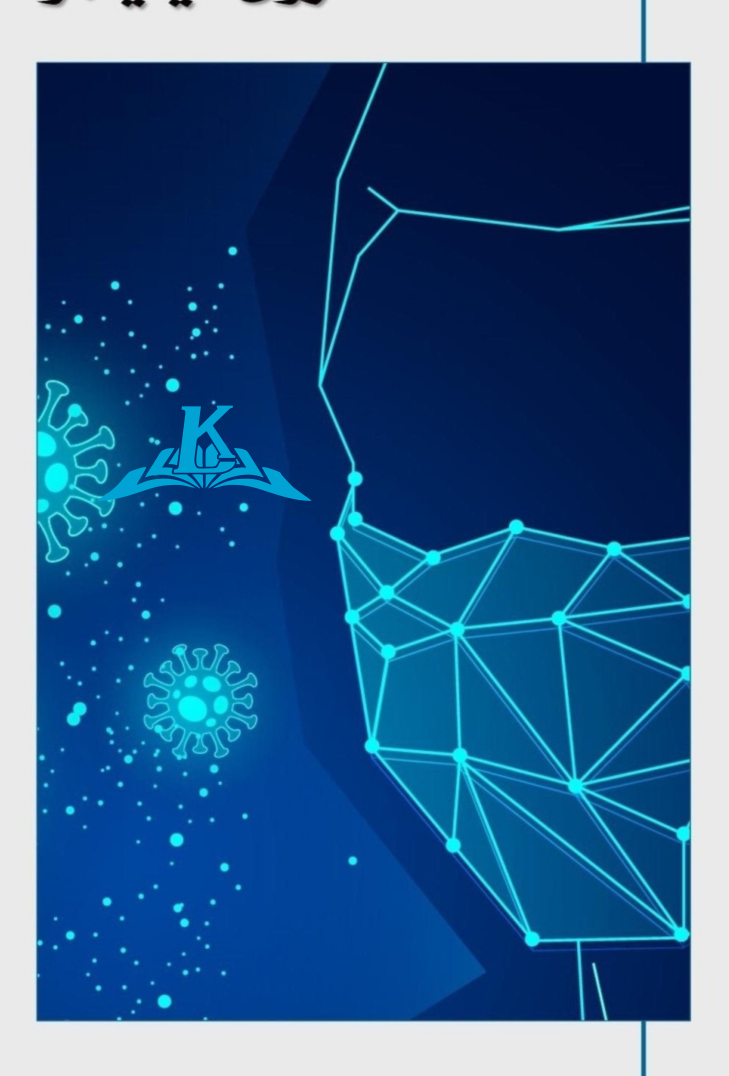


الجوائح في الأزمنة المعاصرة

رؤى دينية وفلسفية



تنسيق

عبد العالي المتقي

عبد الله هداري

الجوائح في الأزمنة المعاصرة

رؤى دينية وفلسفية

مؤلف جماعي

تنسيق

عبد العالي المتقي   عبدالله هداري

الطبعة الاولى : 2020

الكتاب: الجوائح في الأزمنة المعاصرة - رؤى دينية وفلسفية
تنسيق: عبد العالي المتقي و عبدالله هداري
الطبعة: الأولى **2020**

الناشر: دار العرفان للنشر والتوزيع، اكادير
الغلاف: رضوان بسداون
الطبع: مطبعة قرطبة، حي السلام اكادير
الإيداع القانوني: 2020MO2273
ردمك:ISBN 978-9920-611-01-5
موقع المركز: https://afkaar.center
البريد الإلكتروني: afkaarcenter@gmail.com

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي مركز أفكار للدراسات والأبحاث

المحتويات

مقدمة

في لحظة الأزمات تُمتحن الإنسانية دوما في رؤاها وفي مناهج تفكيرها وتدبيرها وأنماط عيشها، لقد فَتحت جائحة كورونا آفاقا جديدة للفكر الإنساني للتأمل في وجوده ومآلاته والتفكير في أشكال معاشه وأنماط عيشه وطرق تدبيره، فتحت أسئلة عن الذات والآخر والمكان والزمان، أسئلة عن الدولة والمواطنة، أسئلة عن الصحة والجسد، أسئلة عن الطبيعة والإنسان، أسئلة عن الإنسانية في كل أبعادها الوجودية والقيمية والمعرفية.

أسئلة تُسائل إنسانيتنا في الخيارات التي اجترحناها وفي الطرائق التي ابتدعناها وفي العادات التي ألفناها و الأماكن التي بنيناها والعمران الذي شيدناه.

أسئلة كشفت أوهامنا حول ذواتنا و أوهامنا حول حضارتنا وتمدننا وتقدمنا، أسئلة كانت مدار اشتباك معرفي وفكري، تنوعت حولها الرؤى والمقاربات، ووضعتنا أمام محك النظر مجددا.

حاولنا في مركز أفكار للدراسات والأبحاث مواكبة تفاعل الباحثين مع هذه الأسئلة من خلال الحرص على نشر دراساتهم ومقالاتهم في موقع المركز ، وفي هذا السياق يأتي هذا الإصدار الذي يضم أهم المقالات والبحوث التي نشرها المركز خلال هذه الفترة الزمنية، والتي سيلاحظ الجميع تفرق مداخل كاتبيها واختلاف وجهات نظرهم التي تعبر عن تعدد رؤاهم وتمثلاتهم.

عمل بحثي نشاركه مع مجموع المهتمين، ونجدد شكرنا للأساتذة الأفاضل الذين تفاعلوا مع مبادرة المركز.

الحجـــر والعــزاء رؤية فلسفية لأصل معاناة الحجر

الحسن أسويق

أستاذ الفلسفة وتاريخ العلوم بالكلية متعددة التخصصات بالناظور، جامعة محمد الأول وجدة.

في غياب أي دواء أو لقاح، تمضي جائحة كورونا في حصد الآلاف المؤلفة من الأرواح عبر العالم يوماً بعد يوم. وأمام شراسة الفيروس التاجي الذي ينتشر بسرعة مهولة، أُجبرت ساكنة المعمور المرعوبة، على الدخول في "حجر صحي" اضطراري؛ حجر يعتقد العلماء ، حالياً، أنه الإجراء الاحترازي الوحيد للحد من تفشّيه. ومع طول هذا الحجر، الذي يبدو أنه سيطول أكثر، وفي غياب أو ضعف البنيات الإعدادية والاستعدادية لمواجهة هذه الوضعية غير المسبوقة في تاريخ الإنسانية، بدأت تظهر صعوبات تطبيق هذا الحجر، كما بدأت تظهر انعكاساته النفسية والصحية السلبية على الأفراد والجماعات، مما يعني أنه صار يتحول إلى "حجر مرضي" سينتج أمراضاً وأعراضاً جانبية إضافية ستنهك ميزانيات دول العالم التي أصبحت اقتصاداتها مهددة بالإفلاس. وفي الوقت الذي دخل فيه الإنسان مرحلة الحجر، وما ترتب عن هذه الوضعية من قنوط وملل؛ بل وخوف وهلع، بدأت الطبيعة تستعيد حيويتها وقد تحررت من الاستغلال البشع والمفرط من طرف الإنسان.

أن تستعيد الطبيعة نقاءها وانشراحها معناه أن حريتنا المفرطة كانت على حساب "حقوق الطبيعة". الآن وقد انبرت الطبيعة للدفاع عن نفسها، فقد الإنسان حريته الخارجية، فهل له، والحالة هذه، القدرة على الاستعاضة عنها ب"حرية داخلية"، تقيه من صدمة اللامعنى؟.

يبدو أن كل التدابير المتخذة والميزانيات المرصودة قد عجزت، لحد الآن، عن وضع حد لهذا الوباء المسلط على الإنسانية(*)، الذي من بين أسباب امتداده الاكتظاظ والكثافةُ السكانية ، سواء في الدول القوية أو الضعيفة اقتصادياً، في المدن الكبرى كما في الأحياء الشعبية الآهلة بالسكان، إذ يصعب تطبيق "التماسف" (التباعد) ، كما تجد السلطات صعوبات كبيرة في إقناع الساكنة باحترام حالة الطوارئ إذ يُطلب منهم أن يلزموا بيوتهم.

وبالرغم من جدوى الحجر كإجراء صحي وقائي، فإنه يبدو أن آثاره على النفوس والأبدان ستكون فادحة، بالنظر إلى الظروف السكنية الخانقة التي تعيش فيها الأغلبية الساحقة من ساكنة المعمور المحفوف الآن بالوباء القاتل. فإلى أي حدّ وإلى أي مدى يمكن لهذا الحجر أن يستمر؟.

وإذا كان كبار السن والعجزة هم الأكثر تضرراً من هذا الوباء، أكان طبيعياً أو اصطناعياً، فإن الإنسانية قاطبة وجدت نفسها تدخل تجربة الشيخوخة، التي تحتاج للمواساة والعزاء. ولمّا كان الحجر الإجباري ليس كالتبتّل الاختياري، عسيراً ليس بيسير، فهل يمتلك الإنسان ذلك الخزّان الطاقي الذي يتطلبه الأمر للخروج منه بأقل الخسائر؟.

غرضنا في هذه الورقة بيانُ أصل معاناة الحجر، وفق رؤية فلسفية، وانطلاقاً من ثلاث مسائل، تتقاطع مع الأسئلة أعلاه، وهي التي يُسأل عنها في ما سيأتي من قول:

(*) - كلمة épidémie ذات أصل يوناني، مركبة من: epi أي "فوق" و dêmos أي "الشعب".

1-بأي معنى وإلى أي حد تُعتبر الطبيعة الإنسانية أصلاً لمحنة الحجر انطلاقاً من نظرية الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال حول "اللهو" ؟.

2-كيف ساهمت سلبيات نمط السكن الحديث في استفحال أزمة "كورونا" انطلاقاً من مفهوم السكن عند الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر؟.

3-بأي معنى يمكن اعتبار تجربة الحجر أشبه بتجربة الشيخوخة كما تصورها الفيلسوف الروماني كيكرو(*) ؟.

1- معاناة الحجر في ضوء نظرية بليز باسكال حول اللهو Divertissement

صحيح أن "اللهو" تيمة رواقية(*) قديمة، لكن أصالة بليز باسكال (1623-1662) تكمن أنه أضفى على "اللهو" دلالة ميتافيزيقية ، وجعل منه مقولة أخلاقية، بل ونظرية متكاملة لفهم الطبيعة الإنسانية وشرطه الشقي.

(*) - اسمه الكامل: Marcus Tullius Cicero (106 – 43 ق.م). يذكر حميد العواضي، مترجم مقال التاريخ والترجمة لصاحبه: لين لونغ، بمجلة التعريب التي تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، العدد: 53 من سنة 2017، ص. ص. 135 – 157، أنه "تعددت طرق كتابة اسم هذا العلم بحسب اللغات المختلفة، وأثر ذلك في نقد الاسم إلى اللغة العربية. فبعضهم يسميه "سيسرون" ربما بتأثير اللغة الفرنسية (Ciceron) أو "سيسرو" (cicero) بتأثير اللغة الانجليزية، أو "تشيشرون" أو "شيشرو" كما كان ينطق كنسياً ، وإن كان ينطق "كيكرو" أو "كيكرون" في اللغة اليونانية. غير أنه يغفل عن ذكر معلومة مهمة هي أن اسمه Cicero يعني الحمص chiche pois, وقد سمي كذلك لأن أحد أجداده كان على أنفه (البعض يقول جبهته) ثؤلول يشبه الحمص. ويُعتقد أن الكلمة ذات أصل أمازيغي بينما يذهب آخرون إلى أنها من أصل لاتيني.

(*) - قبل باسكال، نجد مفهوم اللهو حاضراً بشكل لافت عند الرواقيين (أو "فلاسفة الحرية الداخلية" كما يطلق عليهم) الذين وظفوه بنفس المعنى الباسكالي تقريباً. هكذا نجد **سنيكا** يعرفه بأنه تلك الحركة التي تلهينا عن التفكير في شرور الوجود ولو لبعض الوقت، **سنيكا** في "***طمأنينة النفس***" (ضمن: Lucio Anneo Séneca, **diálogos**, estudio preliminar, traduccióny notas de Carmen codoñer, cuarta edicion, Tecnos, Madrid, 2016.)

وانسجاماً مع ما نحن بسبيله، لنر كيف يجيب باسكال عن السؤال التالي: ما الذي يجعل الحجر الاضطراري صعب التحمل ومصدر معاناة وشقاء ؟.

السبب في نظره يكمن في أن الحجر يحد من حركة الإنسان. وحسب القول المأثور لهذا الفيلسوف فإن " كل مآسي الناس ناتجة عن شيء واحد، هو أنهم لا يعرفون أن يمكثوا داخل بيوتهم بدون حركة "[1]. وإذا كان هذا هو سبب cause كل مآسيه، فإن السبب الثاوي وراء ذلكraison " يكمن في الشقاء الطبيعي لشرطنا الضعيف والفاني، والذي بلغ درجة من البؤس يتعذر معها إيجاد شيء يواسينا ونحن نفكر في ذلك عن قرب"[2]. إن الناس، يقول باسكال، "عندما عجزوا إيجاد علاج للموت، والشقاء، والجهل، قرروا، لكي يصبحوا سعداء، عدم التفكير في كل ذلك"[3].

لقد أصبح الناس الآن ممنوعين من مغادرة بيوتهم، إلّا لضرورات قصوى، وبمقتضى قوانين أملت الحاجة الملحة استصدارها. ومن ثمة، فهم في وضعية شبيهة بوضعية سجين يعيش "معاناة رهيبة"[4] لتواجده في مكان مغلق والحركة فيه محدودة. وهذا ما يفسر أن الإنسان، يحب الضجيج والضوضاء، ويخشى العزلة بقدر ما يخشى السجن؛ لقد صار الإنسان محروماً، إلّا في حدود دنيا وتحت رقابة صارمة، من حرية التنقل والتّزاور والصيد، والعمل، والرياضة، والمغامرات الغرامية، والسفر، والدراسة، واللعب....الخ، أي من كل الأنشطة المُعزّيّة؛ الجدية منها، والهزلية التافهة، التي يُبيحها لنفسه من أجل الهروب من القنوط والملل

---

[1] - Blaise Pascal, Pensées, Hachette, 1950,p. 64. (طبع الكتاب أول مرة عام: 1969).

[2] - ibidem.

[3] - Ibid., p.75.

[4] - Ibid., p.65.

والسوداوية؛ كل الأنشطة التي تجعله يحس بالسعادة ولو على سبيل الوهم، التي تنجيه من "الالتقاء بنفسه"، أي تنجيه مما سماه أبو حيان التوحيدي: "البينونة"[1]. ولأن الإنسان عاجز عن إيجاد حلّ لمشكلة الموت، تجده يحاول النسيان، ويبحث عن كل الوسائل، والحيل، والمراوغات stratagèmes ؛ بل والمغامرات والمخاطرات، التي تجعله "يلهو إلى أقصى الحدود ويفكر إلى أدنى الحدود".

إن اللهو، بما هو مجموع الحيل التي يحاول الإنسان أن يداري بها شقاءه، يؤدي وظيفة نفعية، إذ يحميه من اليأس ويجعله يُقبل على الحياة؛ لكن لا يجنبه الموت، بل يقوده إليها دون أن يحس"[2]. وحسب التيولوجيا الباسكالية فكلما ابتعد الإنسان عن الله(*) كان شقياً وكلما اقترب منه كان سعيداً. أي أن السعادة الحقيقية تكمن في أن يكون الإنسان بجانب الله.

تكمن مفارقة اللهو في أنه الشيء الوحيد الذي يواسينا في مآسينا؛ لكنه، في نفس الوقت، هو مأساتنا الكبرى، لكونه يمنعنا من التفكير في ذاتنا، ويلقي بنا إلى

---

[1] - أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق وتعليق: حسن السندوبي، دار المعارف، سوسة\ تونس، 1991، ص. 53.

[2] - Blaise Pascal, Pensées, op.cit.,p.76.

(*) - لا يجزم باسكال بوجود الله؛ لكنه يدعو للإيمان بوجوده، إنه نوع من الرهان Pari، إذا كان موجوداً فإننا سنربح مكاناً مضموناً في الجنة، وإذا لم يكن موجوداً، فإننا لن نخسر أي شيء. يقول: " لنفكر بمنطق الربح والخسارة، معتبرين أن الله موجود (Dieu est). ولنتأمل الحالتين: إذا ربحتم، فستربحون كل شيء؛ وإذا خسرتم فلن تخسروا أي شيء. فلتربحوا إذن وجوده، وبدون تردد"، **Pensées**, op.cit., p. 95.

الضياع دون أن نحس بذلك"[1]، كما تكمن في أن الإنسان يأخذ اللهو، بما هو لهو ولعب، مأخذ الجد.

على ضوء ما تقدم، يمكننا القول إن دخول الإنسان في الحجر ليس إلا من قبيل الحماية، لأنه لا يمكن للإنسان أن يظل في بيته حباً وطواعية، فهو في حاجة إلى حركة دائمة . مثل الصياد الذي يجد متعة في الجري وراءه، ولكنه "لن يرغب فيه إذا قُدم له جاهزاً"[2]، لأننا "نفضل الصيد على الحصول على الفريسة"[3]، كما أنه إذا "كان الأرنب لا يمنعنا من النظر في الموت، فإن الصيد يمنعنا من ذلك فعلاً"[4].

وفي علاقة بذلك، يرى باسكال في هذه السعادة مجرد سعادة زائفة، أما السعادة الحقيقية فتكمن في ما يصنع عظمة الإنسان، وهو التفكير . وهذا ما يعبر عنه بالقول:" لقد خلق الإنسان لمعرفة الكون، والنظر العقلي في جميع الأشياء، لتسيير دولة بكاملها، وإذا بنا نجده منشغلاً وحريصاً على القبض على أرنب"[5]، ويضيف، في نفس السياق، "جليّ أن الإنسان وُجد من أجل أن يفكر، وهنا تكمن كلّ كرامته وقيمته، كل واجبه هو أن يفكر كما يجب. ويقتضي نظام التفكير أن يبدأ بنفسه"[6].

الحجر إذن فرصة للتفكير والتأمل في الذات، وهذا، لا شك، يحتاج إلى الهدوء والسكينة. هل يوفر السكن المعاصر ذلك؟.

---

[1] - Blaise Pascal, Pensées, op.cit.,p.75.

[2] - Ibid., p. 65.

[3] - Ibidem.

[4] - Ibidem.

[5] - Ibid., p. 68.

[6] - Ibid., p.70.

2- الحجر وأزمة السكن: هايدغر (1889-1976).

تُسجل النسب العالية للمصابين بعدوى فيروس كورونا المستجد في المدن الكبرى عبر العالم، سواء في الدول الغنية أو الفقيرة. وذلك لسبب رئيسي هو الكثافة السكانية(*)، حيث يصعب تطبيق ما صار معروفاً بـ"التماسف (التباعد) الاجتماعي" la distanciation sociale بسبب الازدحام والاكتظاظ، سواء في الفضاءات العمومية أو داخل المنازل.

هذه المدن التي صُممت وفقاً لتصور تقني وكمي للمجال، وعلى قاعدة "معايير حسابية"[1] ووفقاً لنموذج "الهندسة السجنية" "architecture carcérale" بالمعنى الفوكوي[2]، الذي يقوم على هاجس الضبط والتحكم، كما يستجيب، من جهة أخرى، لمعايير "المدينة الوظيفية " ولإيقاع عالم السرعة؛ نموذج يقوم، فلسفياً، على فكرة "الإنسان – الآلة" في خدمة "المدينة – الآلة" التي تعجّ ببنايات شاهقة فضيعة وعمارات مختلفة الأطوال والأحجام، تأوي الأغلبية الساحقة من الطبقات الفقيرة

(*) - في كتابه عن الحروب البلوبونيزية، يذكر أن العدد الكبير، الذي يقدر بعشرات الآلاف من الضحايا، الذي خلفه الطاعون الذي اجتاح أثينا في فترة ما بين 430 و 426 قبل الميلاد، سببه الإستراتيجية العسكرية التي انتهجها القائد العسكري بيركليس، الذي لقي حتفه أيضاً بسبب الطاعون، والقاضية بنقل سكان المناطق الريفية المجاورة إلى داخل أسوار مدينة أثينا المكتظة بسكانها مما حولها إلى مرتع للمرض، وإلى شبه مقبرة جماعية.

[1] - Céline Bonicco – Donato, ***Heidegger et la question de l'habiter. Une philosophie de l'architecture***, Parenthèses, 2019, p. 7.

[2] - يُنظر الفصل الأول بعنوان: ***المؤسسات الكاملة والصارمة***، من ص. 235 إلى ص. 257، (وتحديداً ص. 248) من القسم الرابع بعنوان: ***السجن.*** ميشيل فوكو، ***المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن***، ترجمة : د.علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. (صدر الكتاب في أصله الفرنسي عام 1975).

والمتوسطة، بداخل "مساكن وظيفية" لا تصلح إلاً لـ"لحياة العملية" وفي خدمة الرأسمالية المتوحشة.

إنه النموذج السكني الذي انتقده العديد من مفكري وفلاسفة ما بعد الحداثة، الذين أبرزوا مساوئ السياسات العمومية في مجال الإسكان وتهيئة المجال، من بينهم الفيلسوف الألماني المرموق مارتن هايدغر الذي ألقى محاضرة في الخامس من شهر غشت عام 1951، وفي إطار ندوة حول " الإنسان والمجال" تحمل عنوان: " الإقامة، السكن، التفكير"، ألقاها أمام مجموعة من الطلبة والفلاسفة، والمهندسين المعماريين وغير المعماريين. في هذه المحاضرة يراجع هايدغر التمثل السائد حول السكن انطلاقا من سؤالين محوريين هما: ما معنى السكن؟ وكيف تشكل الإقامة جزءاً من السكن؟.

إن السكن، الذي يناقشه هايدغر في نصه المشار إليه، يكتسب بعداً أكثر تميزاً وشمولية، إذ يشمل كيفية الوجود الإنساني على الأرض، ومن ثمة يتجاوز فكرة اعتبار السكن كمجرد مأوى. وهكذا فإن إقراره بأهمية الإسراع في تشييد وإعادة بناء المساكن على نطاق واسع وبشكل مكثف، بعد الحرب، لمنح كل مواطن محلاً يحميه Abri ، لم يثنيه عن الإقرار بما هو أهم؛ وهو أنه لا يكفي أن نمتلك سقفاً فوق رؤوسنا لكي نتحدث فعلا وحقيقة عن فعل السكن؛ لأن فعل السكن Habiter ليس كفعل القطون (من قطن) loger. ففرق بين الساكن والقاطن، و"فرق بين أن يكون لك محل يحميك وبين أن يكون لك مكان في العالم"[1]. وهايدغر بذلك ينقل مسألة أزمة السكن والإسكان التي نُظر إليها ضمن منظور كمي إلى منظور نوعي؛ إذ يعتبر أن الأهم هو البحث في شروط توفير المباني لكي تكون فعلا

[1] - Céline Bonicco – Donato, ***op.cit.*** p. 6.

مساكن تحقق الشرط الإنساني وليس مجرد مأوى يُبقيك على قيد الحياة. ومن هنا فإن مقاربته تقع على نقيض المقاربة الوظيفية للسكن والإسكان كما طورها لو كوربوزيي[1] في كتابه "ميثاق أثينا".

يعتبر هايدغر أن السكن ليس هو الشكل الهندسي للمسكن، أو للمحل المقطون. أي أن السكن لا يختزل في مجرد مأوى logement. إن السكن يعني فعل وطريقة السكن؛ إنه الشرط السكني؛ إنه إحدى مميزات الشرط الإنساني[2]. وهذا ما لم يُفكر فيه ولم يُلتفت إليه من قبل[3].

ليس للسكن إذن، حسب هايدغر، أي علاقة بالإيواء، أي أن تكون ساكناً لا يعني في شيء أن " تأوي إليه". صحيح أن العمارات توفر للإنسان حيزاً يقيم فيه، لكنه يسكنها ولا يسكن فيها(*). لا يعني السكن إذن امتلاك مأوى، فمكان الإيواء ليس في الحقيقة إلا محلاً local، أي علبة يمكن أن نودع فيها الأشياء كما نودع فيها الأجساد. فلفظ الإقامة يفيد الاحتواء فقط ولا شيء غير ذلك. فالشقة إذن محل إقامة لأنها عبارة عن علبة، حتى وإن تعلق الأمر بدار تضم بيوتاً، تحوي

---

[1] - يتعلق الأمر بنظرية الوظائف الحضرية الأربع المقترحة من طرف لو كوربوزيي في إطار "ميثاق أثينا" (1945)، وهي: السكن، والعمل، والراحة، والجولان.

[2] - Martin Heidegger,« ***Bâtir Habiter Penser*** », in : Essais et conférences, Gallimard, Traduit de l'allemand par André Préau et préfacé par Jean Beaufret, 1958,pp. 170-193.

[3] - Ibidem.

(*) - حسب التمييز الذي يقيمه في كتابه "الوجود والزمان" بين "الوجود في العالم" كوجود مكاني وضمن أشياء العالم: "« être dans le monde » و "الوجود في العالم" « être au monde » بمعنى "الدازاين".

عدة أجساد بشرية. وتأسيساً عليه، فإنه ليس كل البنايات مساكن[1] وليس السكن مجرد احتلال لمحل نقيم فيه ونأوي إليه[2]. لأنه، إذا كان الأمر كذلك، وبناء على هذا المنظور، فإنه يمكن اعتبار التابوت أيضاً مأوى[3]؛ فالجسر أو ساحة المطار أو ملعب أو محطة كهربائيه هي بنايات وليست مساكن[4].

مشكلة السكن، إذن، حسب هايدغر، لا يمكن اختزالها إلى مشكلة سوسيو- اقتصادية للإسكان. أن تسكن، بالنسبة لهايدغر، هو أن تكون إنساناً، والسكن تعبير عن الطريقة الخاصة للوجود الإنساني في العالم؛ إن الإنسان في ماهيته يعتبر ساكناً un habitant فوق الأرض؛ لكن هذا ليس إلا مجرد السمة الأولى لفعل السكن؛ إذ أن هذا الأخير لا يعني أن يكون لك محل، فوق الأرض، تقطنه وتمكث فيه؛ إنه أكثر من ذلك، هو تدبير عملية الوجود فوق الأرض، أو المكوث الأرضي، أي حمايتها والاعتناء بها[5]. إنه الطريقة الإنسانية المتميزة التي يوجد بها الإنسان في العالم بما هو "دزاين" (المعنى التقريبي: الوجود هنا في العالم كوجود متميز) ضمن تلك الوحدة الأصيلة للأرض والسماء من جهة، و للآلهة والناس من جهة أخرى، حيث تتواصل هذه المستويات فيما بينها لتشكل ما نسميه بالعالم في إطار "المركب الرباعي" Quadriparti[6]. أي العناصر الأربعة: الأرض والسماء من جهة، والإشارات الإلهية والناس من جهة أخرى، والتي تشكل مجتمعة كلّا موحداً

---

[1] - Martin Heidegger,« **Bâtir Habiter Penser** », op.cit.

[2] - Ibid.

[3] - Ibid.

[4] - Ibid.

[5] - Ibid.

[6] - Ibid.

انطلاقاً من وحدة أصلية[1].

إن تصور هايدغر حول كينونة السكن، يعتبر بمثابة انتقاد شديد للتصور الهندسي الحديث الذي من بين سماته الأساسية فصل الإنسان عن مجاله الطبيعي، واعتبار المجال كمجرد امتداد جغرافي؛ إذ أن المجال، يقول هايدغر، لا يوجد جاهزاً؛ بل يصير كذلك، من خلال الاعتناء بالأمكنة وتهيئتها وتدبيرها. ومن هذه الجهة، يصبح فعل السكن هو "ما يشكل السمة الجوهرية للكائن"[2] والمحدد لعلاقة الإنسان بالمجال الذي "ليس شيئا آخر غير السكن مفكراً فيه من حيث كينونته"[3]. يتعلق الأمر بفعل وجودي بمقتضاه "يحيي الإنسان قريباً من ذاته، ضمن الأشياء، ومع الآخرين[4]. وفي هذا الإطار، يذكرنا هايدغر بأن من بين المعاني الأصلية لفعل الإقامة(*) bâtir (في اللغة الألمانية bauen) هو استثمار الحقل وزراعة الكرمة.[5]

كما تعني الإنسان من حيث هو ساكن، وبالوقت عينه تعني كلمة bauen الحماية والرعاية والتعهد العناية بثمار الحديقة[6]. بهذه الشروط يمكن للإنسان أن يسكن بطريقة تمكنه من إنقاذ الأرض[7] دون استغلالها واستنزافها[8].

---

[1] - Ibid.

[2] - Ibid.

[3] - Ibid.

[4] - Ibid.

(*) - آثرنا ترجمة هذا الفعل بـ"فعل الإقامة" لما يحيل عليه في اللغة العربية من تأسيس وسكون وجوار.

[5] - Martin Heidegger, « **Bâtir Habiter Penser** », op.cit.

[6] - Ibid.

[7] - Ibid.

[8] - Ibid.

وبهذا المعنى، فإن المجال بالنسبة للإنسان، يقول هايدغر، ليس ما هو بإزائي un vis-à-vis، إنه ليس موضوعا خارجياً ولا تجربة داخلية. الأمر لا يتعلق بوجود الناس ثم المجال بعد ذلك؛ لأنه عندما أنطق بكلمة 'إنسان" فإنما عني بها ذلك الكائن الذي يوجد على نحو خاص؛ أي من حيث هو كائن يسكن، أي يقيم ضمن المركب الرباعي بالقرب من الأشياء[1]. (وهذا معناه أن الإنسان هو الأُنس والجوار).

يصبح فعل الإقامة إذن أساس فعل السكن، بحيث أن "العلاقة بين فعل السكن وفعل الإقامة كعلاقة الغاية بالوسيلة"[2]؛ لكن دون أن يعني ذلك أن فعل الإقامة ليس مجرد وسيلة للسكن لأن فعل الإقامة هو من حيث المبدأ وفي ذاته فعل السكن.

من جهة أخرى، يذكرنا هايدغر بأن السكن سلوك إنساني؛ لكن ليس سلوكاً إنسانياً ضمن سلوكات أخرى كالعمل والسفر، أي سلوكاً ينضاف إلى سلوكات أخرى توجد على نفس المستوى وداخل نفس النظيمة série ؛ بل إنه السلوك الذي يرأس (يوجد على رأس) كل سلوك ممكن[3]، إنه الحضن الذي يحضن كل السلوكات؛ لأن فعل السكن ليس وظيفة، بل إنه شرط؛ بل إنه بالأحرى، "السمة الأساسية للشرط الإنساني" التي تحقق كينونته وذاته الوجودية.

وبناء عليه، يؤكد هايدغر على أن الحلول التي أوجدتها السلطات الألمانية، التي كانت تمر بأزمة إسكان خانقة، نتيجة القصف المدمر الذي تعرضت له من

---

1 - Ibid.

2 - Ibid.

3 - Ibid.

قبل الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، للأزمة تكمن في إيجاد محلات لائقة بمعايير الحياة العملية، وبأثمنة متاحة، محلات مفتوحة على الهواء والضوء والشمس، لكنها لا توفر إمكانية السكن (السكينة) بالمعنى الحقيقي، يقول هايدغر[1].

في عز أزمة السكن بألمانيا التي أصابها الخراب يعلن هايدغر، بكل هدوء، أنه ليست هناك أزمة للسكن، ليضيف بعد ذلك:"إن أزمة السكن الحقيقية لا تكمن في خصاص في المآوي logements, "الأزمة الحقيقية للسكن تكمن في أن الناس سيكونون دائماً مطالبين بالبحث عن كينونة السكن، كما يجب عليهم أولاً تعلم فعل السكن"[2]، كما تكمن في أن الناس، وهم بداخل هذه المساكن، سيكونون في حاجة إلى كينونة السكن[3]. وهذه الكينونة تكمن في أن تكون فرحا وآمنا، محمياً ومصونا[4]، "فعل السكن هو أن تكون في أمان، وحرية هكذا يصبح السكن ضامناً للأمان فوق الأرض كما الإنسان في حضن أمه. سكن يسمح بالتأمل والتفكير، لأن الوجود الإنساني يتجاوز الوظائف الأربعة: العيش، والعمل، والاستراحة، والجولان. وهكذا فأن التفكير من أجل السكن يشكل إلى جانب فعل الإقامة جزءاً من السكن.

---

[1] - ibid.

[2] - Ibid.

[3] - Ibid.

[4] - Ibid.

في ظل إجبارية العزل المنزلي تتحول هذه الشقق السكنية، يوماً بعد يوم، إلى محاجر خانقة وجحيم لا يطاق(*)، وسبباً في إنتاج أمراض إضافية جسدية ونفسية حادة؛ بل وتهدد الصحة العقلية، وعائقاً أمام التصدي لهذه الأزمة الصحية العالمية، والتي قال عنها هايدغر إنها تواصل تقويض الأسس الحقيقية للسكن، في الوقت الذي ينعم فيه كبار الملاكين والبورجوازيين، الذين يحرصون على رعاية هذا النموذج الذي يدر عليهم أرباحاً طائلة لا يمكنهم التفريط فيها بأي حال من الأحوال، في "مساكن" فسيحة تتوفر على كل سبل اللهو(*)، بالمعنى الباسكالي. وهذا يبطل، ولو جزئياً، الدعوى القائلة بأن الوباء ساوى بين جميع الناس.

إن الدعوة إلى البقاء في البيت دعوة لا تراعي بأن "البيوت تتفاوت ما بين الفيلات والقصور والأكواخ، والشقق ذات الشرفات، والشقق بدون شرفات، كما لا تراعي حجم عائلة وأخرى، فثمة فرق بين التجول في دار مترامية الأطراف حيث يحافظ أفراده على خصوصياتهم على الرغم من إقامتهم سوية فيه، وبين حشر عائلة كبيرة في شقة ضيقة لا يمكن إلّا أن تكون مصدراً لعنف أسري ومضارّ نفسية وجسدية.

(*) - غرفة شبيهة بتلك التي وصفها الفيلسوف سارتر في مسرحيته التي كتبها عام 1943 تحت عنوان " أبواب مقفلة" والتي يصف فيها ثلاثة أشخاص فُرض عليهم التعايش فيها عنوة. وهي المسرحية التي ختمها سارتر بعبارته الشهيرة : "الجحيم هو الآخرون".

(*) - والذين ينوعون أمكنة الإقامة بين السهول والجبال والبحار، كما يغيرون مساكنهم، مختلفة الأشكال الهندسية، ليس بحسب تغير أحوال الطقس والفصول فحسب، بل بحسب تغير أمزجتهم الخاصة.

يعتبر هايدغر أن المنزل(*) القروي، هو وحده الذي يحقق "المركب الرباعي"، وقد تم تقويضه عندما تمت عملية عولمة نموذج السكن الحديث على حساب البنيات التقليدية الأصيلة والخصوصيات الثقافية والحضارية لباقي الشعوب، وهو نموذج يفصل الإنسان عن جذوره Le déracinement de l'homme، ولا يخفف من مساوئه إلا المساحات الخضراء والحدائق الجميلة، خاصة في الدول المتقدمة، غير أن ذلك يُعدّ بدوره فصلاً، لأنه يفصل الإنسان عن علاقته المباشرة بالطبيعة ولا يحقق مطلب "السكن المنزلي" بالمعنى الذي بيّناه.

3- **معاناة الحجر في ضوء تجربة الشيخوخة: كيكرو** (ولد في " يناير 106 ق. م وتوفي مقتولاً يوم 7 دجنبر 43 ق.م).

إذا كان صحيحاً أن هذا الوباء الكاسح يفتك بشكل خاص بالعجزة وكبار السن(*)، فإنه أدخل جميع العباد، من مختلف الفئات العمرية، في وضعية الحجر، وجعل الجميع، بدون استثناء، يعيش تجربة الشيخوخة الصعبة.

(*) - بالمعنى اليوناني للكلمة، أي (الإيكوس) - οἶκος كما ورد في كتاب **اكسينوفان** الذي يعرف المنزل بالقول:

« Une **maison** est pour nous la même chose que toute espèce de possession, et nous avons appelé possession ce qui pour chacun est utile à la vie ; enfin le mot utile, nous l'avons appliqué à tous les objets dont on sait user », Xénophon, ***Economique***, TRADUCTIONFRANÇAISE-DE TALBOT, REVUE ET ANNOTÉE PAR M. DE PARIYAJO.V, Paris, 1886, p.43.

وهو المعنى الذي يوافق تعريف "الاقتصاد" كتدبير للمنزل كما ترجمه الفلاسفة المسلمون في العصر الوسيط.

(*) - يميز **كيكرو** في الشيخوخة بين مرحلتين: مرحلة كبار السن (*presbuteis*) من 55 إلى 65 سنة، وبين مرحلة الشيخوخة الفعلية (*gerontes*): ما فوق سن 65.

يحصي **كيكرو** أربعة أسباب تجعل الشيخوخة صعبة التحمل:

- السبب الأول: لأنها تبعدنا عن أشغالنا؛
- السبب الثاني: لأنها تضعف أجسادنا؛
- السب الثالث: لأنها تحرمنا من اللهو؛
- السبب الرابع: لأنها تجعلنا بمقربة من الموت.

لهذه الأسباب الأربعة صار الحجر، كما الشيخوخة، معاناة مؤلمة. إن المحجورين، شيوخاً أو شباباً، ستتضاعف معاناتهم، والحالة هذه، إذا تعرضوا للإهمال. يقول **كيكرو** في هذا: "إنه ليس هناك ما هو أكثر إيلاماً لكبار السن والعجزة، وهم في حالة العزل، من الإهمال"[1]. (وقد تبيّن للجميع، خلال كارثة كورونا الحالية، مدى أهمية الدولة الراعية في إغاثة المكلومين والتخفيف من معاناتهم وهم في الحجر(*)).

---

[1] - Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.6.

(*) - لكن رغم ذلك، يُخشى أن يتم استغلال حاجة الشعب للحماية، لتقوم بنشر الخوف كـ"سلاح وباءي". كما أن هناك تخوفاً من الشطط في استعمال السلطة بحيث تذكرنا بعض الإجراءات الانضباطية المصاحبة لفرض حالة الطوارئ الصحية، في الكثير من الدول، بتلك التي تم اتخاذها في أوروبا القرن التاسع عشر لمحاربة وباء الطاعون، والتي يتحدث عنها **ميشيل فوكو** بشكل مفصل في سياق تحليله للمجتمع الانضباطي. نقرأ مثلاً ما يلي: " هذه هي، بموجب نظام صادر في أواخر القرن السابع عشر، التدابير التي يجب اتخاذها عندما يتفشى الطاعون في مدينة ما. يقول فوكو:

"في بادئ الأمر حصر فضائي صارم: إغلاق، بالطبع، في المدينة وفي "ملحقاتها" ، منع الخروج منها تحت طائلة الإعدام، القضاء على الحيوانات التائهة؛ تقطيع المدينة إلى أحياء منفصلة بحيث تقام في كل حي سلطة لمشرف، كل شارع يوضع تحت سلطة إداري؛ يتولى مراقبته؛ فإذا تركه تعرض لعقوبة الموت. في

وكما عبّر عن ذلك **سنيكا** في "طمأنينة النفس": " عندما نحرم من اللهو لا نتحمل أن نكون منعزلين، وحيدين بين الجدران الأربعة للغرفة الواحدة .ومُهملين لا أحد يهتم بنا[1].

لم تستثن الجائحة إذن أحداً، لقد مست جميع الطبقات الاجتماعية، الأغنياء والفقراء، الذين يملكون والذين لا يملكون. بحيث أصبح الجميع سواسية أمام الفيروس، لكنه، اجتماعياً، فإن الإمكانيات والفرص ليست متساوية.

يوم معين، يطلب إلى كلّ أن يغلق باب بيته على نفسه: ويمنع الخروج تحت طائلة الإعدام. يأتي الإداري بنفسه فيغلق من الخارج باب بيته، ويأخذ المفتاح فيسلمه إلى المشرف على الحي؛ يحتفظ المشرف بالمفتاح حتى نهاية الحجز الأربعيني (كارنتينا)"، ص. 206.

ميشيل فوكو، ***المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن*** ، ترجمة : د.علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. (صدر الكتاب في أصله الفرنسي عام 1975)، الفصل الثالث بعنوان: ***البانوبتية أو الإشراف*** من ص. 206 إلى ص. 232.من القسم الثالث بعنوان : الانضباط.

وهذا ما تحدث عنه بتفصيل الفيلسوف الكوري الجنوبي المعاصر المقيم بألمانيا: ***بيونغ شول هان***، بمناسبة أزمة كورونا من حيث رهاناتها وتداعياتها، محذراً مما سماه سلطة "الفيودالية الرقمية" (نموذج الصين)، انطلاقاً من المفهومين اللذين نحتهما **فوكو** " البانوبتيكية" و " البيوسياسية" كجزء من نظريته حول: "بيو-سلطة" une théorie du **biopouvoir** (يُنظر كتابه الذي هو عبارة عن درس في الكوليج دو فرانس ما بين سنتي 1978 -1979 : (**Naissance de la biopolitique** , Gallimard, 2004)

https ://www.clarin.com/cultura/byung-chul-vamos-feudalismo-digital-modelo-chino-podria-imponerse_0_QqOkCraxD.html

(تفيد الإشارة هنا إلى مشروع القانون تحت رقم 20-22 الذي حاولت الحكومة المغربية تمريره قبل التراجع عنه تحت ضغط الرأي العام الفايسبوكي الذي أطلق على هذا المشروع تسمية: قانون تكميم الأفواه).

[1] - Sénèque, **La Tranquillité de l'âme**, op.cit.

ومهما يكن من أمر، فإنه في جميع الحالات يصعب تحمل معاناة العزل المنزلي؛ لأنها مثل الشيخوخة، كما بيّن ذلك **كيكرو**، يصعب تحملها في شروط الفقر الحادة، كما يصعب تحملها من طرف أي معتوه ولو توفرت له كل شروط الغنى الفاحش[1].

في ظل الحجر يعيش الإنسان وضعية الريبة واللايقين؛ لأنه يجد نفسه في مواجهة المجهول والخوف من الموت، كما يجد نفسه في حقل الممكنات الذي يتقلص يوماً بعد يوم. كما يعيشون وضعية اللامعنى(*)؛ لأن ما يضفي المعنى على الوجود الإنساني في آخر التحليل، شيئين أساسيين وقد انتزعا منه:

الأول هو المشاريع والأشياء التي يهتم بها ويعلق آماله عليها، والثاني، وجوده مع الآخرين(*):

---

[1] - Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit, p.6.

(*) - بحثاً عن المعنى في ظل الحجر، تخبرنا وسائل التواصل الاجتماعي بمجموعة من مبادرات التضامن الإنسانية كمساعدة المحتاجين عن طريق إرسال بعض الإعانات، والاتصال بالذين يعيشون وحدهم لمؤانستهم، وتقديم النصائح الصحية والنفسية، و تقاسم الفيديوهات المختلفة.. الخ.

(*) - الوضعية شبيهة بما يُعرف بـ"معضلة (أو مطبّ القنفذ)، وتسمى في بعض الأحيان بـ"كناية النيص" La parabole des porcs – épics. وهي كناية عن التحديات التي تواجه العلاقات البشرية الحميمية كما يصفها **آرتر شوبنهاور** في: « Parerga et Paralipomena » : في فصل الشتاء عندما تكون هذه الثدييات معزولة، بعيدة عن بعضها البعض، تحس بالبرودة؛ لكن عندما تلتحم فيما بينها لتبادل الحرارة، تؤذي بعضها البعض بأشواكها. تجد هذه الحيوانات نفسها بين العزلة الباردة وتلاحم حار، لكنه مؤلم ومؤذي. يتعلق الأمر باستعارة تعكس حاجتنا المفارقة إلى الآخرين؛ فنحن في حاجة للالتحاق بالآخرين للتعويض عن فراغ ورتابة حياتنا الجوانية بحيث أننا عندما نكون وحدنا نكون في حاجة لأن نكون مع الآخرين، وعندما نكون مع الآخرين نكون في حاجة لأن نكون وحدنا، أي في حاجة لـ"تباعد اجتماعي".

لقد عزلتنا الجائحة عن مشاريعنا وانشغالاتنا الجدية والتافهة على حد تعبير بليز باسكال، كما عزلتنا وفصلتنا عن الآخرين، إذ لم يعد الغير قريبا منا بل أصبح عدوا مفترضا، أصبح "الإنسان معد للإنسان" يجب تجنب الاقتراب منه وملامسته (*).

قدم كيكرون تصوراً إيجابياً عن الشيخوخة مخالف للتصور التشاؤمي لكتّاب التراجيديا أو الكوميديا، والفلاسفة اليونانيين السابقين[1]، تصور يصحح فيه النظرة التشاؤمية التي قدمها مثلا هوميروس أو أرستوفان أرسطو (الذي استعمل تعابير قدحية من قبيل: "العجوز الوغد" في كتاب الاستعارة، و"العجوز البخيل" في الأخلاق الى نيقوماخوس). وبمقتضى هذا التصور، يذهب كيكرون إلى أنه يمكن أن تكون الشيخوخة "شيخوخة سعيدة" متى توفرت مجموعة من المقومات ذاتية من بينها أساساً:

- المناعة الفكرية والعقلية التي يستمدها من ثلاثة مصادر:

أولاً: من "الموارد الداخلية، إذ أن "الأشخاص الذين يفتقرون لموارد داخلية يعتمدون عليها ليعيشوا حياة سعيدة يجدون كل فترة من عمرهم قاسية"[2]. ويقصد بذلك، أساساً، الطاقة الفكرية و"العقل المستقيم" (recta ratio) الذي يمنحه الحكمة

(*) - تجنب "اللمس"، سواء تعلق الأمر بلمس أسطح الأشياء أو المصافحة، يُنظر في الحالة الأخيرة، المقال الجميل للأستاذ **عثمان الزياني** تحت عنوان: جائحة كورونا و"اللمس السياسي"، https://banassa.com/opinions/19550.html

[1] - **Jean-Paul** Resweber, « **Le rêve cicéronien d'une heureuse vieillesse** », *Le Portique* [En ligne], 21 | 2008, mis en ligne le 05 juin 2010, consulté le 01 mai 2020. URL : http://journals.openedition.org/leportique/1863.

[2] - Cicéron, ***La vieillesse***,op.cit., p.5.

(بمعنى الفرونيسيس- La *phronêsis*). وهكذا فإنه لا عزاء لنا في شيخوختنا، يقول كيكرو، إلا العقل[1] الذي بفضله نتحرر من سجن "هندسة الجسد"[2] المعطّل والمتهالك ويؤثث فراغنا الوجودي ويرمم هشاشتنا الأصلية. السعادة إذن لا يمكن إلا أن تكون سعادة عقلية، وأما الملذات الحسية فلا تحقق إلا سعادة زائفة[*]. وهكذا يمكننا تحويل "الحجر البدني" إلى "لاحجر عقلي" كما عبّر عن ذلك **إدغار موران** في إحدى حواراته[3].

ويستمدها، **ثانياً**، من خزان الذاكرة السعيدة التي تمنح لصاحبها راحة الضمير. يقول **كيكرو** إن أحد الأسلحة الفعالة لمواجهة الشيخوخة وعزاءنا في فقداننا لحريتنا الاستنجاد بمخزون الذاكرة أو ما يسميه القديس أوغسطين بـ"قصر الذاكرة الفسيح"[4] "الوعيُ بماضي مشرف يكمن في ذكرى التعامل الايجابي والخيّر مع

---

[1] - Ibidem.

[2] - Ibid., p.26.

(*) - بلغت درجة احتقار **كيكرو** للملذات الحسية أن ربطها بالخيانة، خيانة الوطن والتآمر ضده بالتعاون والتخابر مع أعدائه، كما يربطها بكل الرذائل والفواحش، Cicéron, ***La vieillesse***, traduction= =française de Vincent Ravasse, Aout 200 », Quebec، ص.16. لكن من المفارقات العجيبة أن **كيكرو** كان رجلاً جد ثري، وهذا هو شأن جلّ إن لن نقل كلّ الفلاسفة اليونانيين والرومان على وجه الخصوص، الذين كانوا بدورهم كبار الملاكين العقاريين يملكون البساتين والضيعات الفسيحة والمساكن الكثيرة فضلاً عن العبيد الذين يخدمونهم؛ لكن ما يميز الفلاسفة، عموماً، هو أنهم مستعدين للتضحية بكل ذلك من أجل أفكارهم ومبادئهم.

[3] - « le confinement physique devrait favoriser le déconfinement des esprits », https://www.lemonde.fr/idees/article/2020/04/19/edgar-morin-la-crise-due-au-coronavirus-devrait-ouvrir-nos-esprits-depuis-longtemps-confines-sur-l-immediat_6037066_3232.html.

[4] - Saint Augustin, **Les Confessions**, Flammarion, paris, 1964, p.211.

الآخرين[1]. إن الذاكرة، كاستحضار للماضي، تصبح بمثابة تغذية راجعة وثمرة من ثمار الشيخوخة[2]. ترتبط الذاكرة السعيدة إذن بالماضي الشريف للشخص. ما يمنح الهبة (autorité) للشيخ ليس الشعر الأبيض (الشيب) أو التجاعيد، بل الحياة الماضية إن كانت حياة شريفة[3].

وجدير بالذكر أن من بين أوجه هذا الاستحضار المُؤنس للعجزة، يقول **كيكرو**، النقاش والحوار(*)، لكن يبدو أن وسائل التواصل الاجتماعي، إن لم نقل إنها أبطلتها تماماً، فإنه من المؤكد أنها قلصت من مجال حضورها إلى حد بعيد.

ويستمدها، **ثالثاً**، من الاستمتاع بالطبيعة التي تجعل الإنسان كائناً حراً[4].

وفي هذا الإطار، يتحدث **كيكرو** عما يسميه "مباهج الحياة القروية"[5] الناتجة عن العيش في وفاق مع الطبيعة(*)، والاعتناء بالأرض والاستمتاع بثمارها، خاصة

---

[1] - Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.6.

[2] - Ibid., p.25.

[3] - Ibid., p.23.

(*) - رغم الدور الإيجابي الذي لعبته وسائل التواصل الاجتماعي في الترويح عن النفس خلال فترة الحجر، فإنه قد لوحظ أن هناك استهلاكاً مفرطاً للأنترنيت، خاصة لدى الشباب، إلى درجة هناك من يتحدث عن: "أومو – ويفي" – Homo - wifi الذي فرض نوعاً من "العزل الاجتماعي" قبل أزمة كورونا.

[4] - Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.37.

[5] - Ibid., p.19.

(*) - حسب **بوئيثوس** يجب الكف عن الشطط في استغلال خيرات الطبيعة "لا يجب أن تطمع في طبيعة تكرم عليك بما هو زائد عن اللزوم. لأن الطبيعة تكتفي بالحد الأدنى وبالمقدار الأقل، وإذا شئت ان تستزيد وتطالبها بما يفوق طاقتها، فإن هذا الإفراط ستكون له نتائج سيئة ومضرة بها".

رعاية الكروم التي تحدث عنها هايدغر أيضا كما مر معنا أعلاه. والعيش في وفاق مع الطبيعة منصتين(*) إليها ومستلذين بسحرها[1]، لأن في ذلك علاج لكل لوعة. وفي

Boèce, ***Consolation de la philosophie***, Préface de Marc Fumaroli, petite bibliothèque Rivages, Traduit du latin par Colette Lazam, Paris 1989, p.87.

إن كل محاولة لإلحاق الضرر بالطبيعة ستكون لها نتائج مضرة بالإنسان، وكسلاح يرتد ضد صاحبه، أي كـ: boomrang، كما عبر عن ذلك الفيلسوف الأرجنتيني إنريكي دوسي،

https ://www.jornada.com.mx/2020/04/04/opinion/008a1pol

(*)- كان مسمى "الحكيم" باللغة الأكادية ببلاد الرافدين القديمة هو: **'amqu** ou **hasisu**: اللفظ الأول مشتق من الجذر السامي mq'(عمق) الذي يدل على العمق. الثاني مشتق من الجذر hss يعني فتح الأذنين واستراق السمع (القدرة على الانصات والفهم).

وهذا ما يقابله في اللغة السومرية عبارة:

lu. Geshiu. Dagal., (« l'homme au vaste entendement ») – littéralement«à l'oreille large».

كلمة **nemequ** الأكادية المشتقة بدورها من جذر **mq'** تدل على لفظ الحكمة. والتي تدل أيضاً على حذاقة العقل وحدة البصيرة بحيث يمكن إدراك مشكلة ما في ماهيتها وفي كليتها والقدرة على ايجاد حل مناسب لها.

تجدر الإشارة إلى أن الحكمة **nemequ** بنت الوحي: للحكيم علاقة بالالوهية تجلى في الوحي الذي خُصّ به الحكيم قد يأخذ في بعض الاحيان شكل ملاك. وهذا ما تعبر عنه كلمة "حسّاسو" السالفة الذكر وألفاظ أخرى مثل: "تكميلتو".

taklimtu (racine kullumu, « montre ») et shubru (forme factive de la racine baru, «regarder »).

الحكيم إذن ، وبالمعنى الحرفي، هو الشخص دو الأذنين الكبيرين اللذين بفضلهما ينصت لوحي الطبيعة والكون.

هذا الصدد ورد في كتاب الشيخوخة **لكيكرو** أن " هوميروس يذكر أن لاييرت (أب عوليس) لم يجد سبيلاً للتخفيف عن لوعة فراقه لابنه سوى الانشغال بزراعة وتخصيب أرضه "[2]. وكأنه بذلك يخضع لعملية "تطبيب طاقي"[3].

خاتمـــــــــــــــــــــــــــــة:

بالالتفات إلى ما سلف، يتبيّن لنا أن معاناة تجربة الحجر، الشبيهة بتجربة الشيخوخة، تجد أصولها في أسباب ذاتية وموضوعية. وقد كان من الممكن أن يكون تجربة أقل إيلاماً وتكلفة لو توفرت للناس مساكن مريحة، وفضاء طبيعي، واستعداد روحي. وهكذا، فالحجر، الذي تحول مع طول المدة إلى تقييد صارم للحرية و"إقامة جبرية" يتمنى الجميع الخروج منها في أقرب الآجال وبأقل الخسائر، أصبح مثل **الفارماكون**: قد يكون دواء كما قد يكون سماً بحسب إمكانيات واستعدادات كل واحد منّا.

Jean – jacques Glassne, « **La philosophie mésopotamienne** ». Encyclopédie philosophique universelle, t.1, Paris, Vrin, 1968.

[1] - ماكس فيبر يتحدث عن نزع الطابع السحري عن العالم . «Désenchantement» ...لكي يصف مسار فقدان الطبيعة لسحرها، ولغزها، بعد التخلي عن الاعتقاد بأن الظواهر الطبيعية مشحونة بمعاني أخلاقية غير قابلة للتفسير. وقد لاحظ **فيبر** أن هذا التغير كنتيجة للطابع العقلي الأنواري خاصة في تركيزها على العلم كمصدر لتفسير العالم الطبيعي، ما عبر عنه القدماء باعتبار الطبيعة مادة حية. ونتيجة للانتقال إلى= = رؤية علمية للعالم للتحكم في الطبيعة والسيادة عليها (حسب العبارة الشهيرة **لديكارت**) وتوظيفها لحاجياته وأهوائنا. هذه الرؤية، كما لاحظ فيبر، لم تترك حيز للمعاني والقيم المتعالي لتشكل جزءاً من الطبيعة. والنظر إلى الطبيعة كمجرد خزان للطاقة قابلة للاستغلال من أجل تحقيق ملذاتنا. وهنا تندرج الدعوة إلى إعادة الطباع السحري للطبيعة **Re-enchanting Nature** **لألكسيس بابازوغلو** Alexis Papazoglou

https://blog.apaonline.org/2020/04/28/coronavirus-and-re-enchanting-nature/

[2] - Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.20.

[3] - Boèce, ***Consolation de la philosophie***, op.cit., p.67.

لقد علّمنا الحجر "ما هو الأساسي" [(*)]Lo esencial، وأن نمط حياتنا كان مجرد سلوكات تعوّدنا عليها ومن الممكن الاستغناء عن جزء كبير منها، كما يمكننا الاستغناء عن كل ما له علاقة باقتصاد الفضلات والمرميات التي لا فائدة لها في حفظ الصحة البدنية والنفسية؛ هذه العادات المرتبطة بنموذج "السعادة الموجهة" القائم على الاستهلاك والذي يصنعه ويحميه ويرعاه المهووسون بالشهرة من المتبجحين والأنذال[(*)].

مما لا شك فيه أنه سيكون لهذه الجائحة التي ضربت العالم طولاً وعرضاً، والتي جعلت أنظمة صحية واقتصادية على حافة الانهيار، تداعيات وجودية من شأنها إحداث تغيرات في هوياتنا الشخصية والاجتماعية، كما ستفرض عدة مراجعات في الرؤى النظرية نتجت عنها خيارات عملية كما نتجت عن الكوارث السابقة التي عاشتها الإنسانية. لكن المعوّل عليه، أساساً، هو تشريعات قانونية على المستوى الدولي؛ لأن غريزة النسيان[(*)] ستجعل الإنسانية تعود إلى سابق عهدها في السلوك والتفكير. أي لا بد من تشريعات دولية جديدة لمواجهة آثار هذه الأزمة حالاً واستقبالاً. ومن البرامج المستقبلية المستعجلة توفير شروط الخلوة الاختيارية بتوفير

[(*)] - أصبح من المفاهيم الأساسية في زمن الجائحة للتعبير عن المهن والقطاعات التي أُستثنيت من حالة الطوارئ الصحية القطاعات والخدمات الأساسية التي لا غنى عنها لاستمرار الحياة، وللتمكن من محاصرة الوباء، في مقدمتها الطب بطبيعة الحال.

[(*)] - يقول بوئيثوس إن هناك خمس عناصر يعتقد هؤلاء أنها سعادة حقيقية في حين أنها مجرد سعادة زائفة. وهي: الثروة، والسلطة، والمكانة الاعتبارية، والشهرة، والملذات، Boèce, ***Consolation de la philosophie***, op.cit., pp. 123-124.

[(*)] - يقول باسكال: "ما مصدر كون إن هذا الشخص، الذي فقد قبل أشهر قليلة، ابنه الوحيد {...} كان جد مضطرب هذا الصباح، والآن لم يعد يفكر فيه؟. كما يتساءل: " كيف لهذا الشخص الذي كان مصعوقاً بفقدان زوجته أو ابنه الوحيد {...} تجده في هذه اللحظة غير حزين، وقد تخلص من كل الأفكار المؤلمة والمزعجة؟"، Blaise Pascal, ***Pensées***, op.cit., pp.68-69.

شروط السكن الملائمة بالتفكير في استراتيجية معمارية جديدة للمجال قائمة على الدمج بين البادية والمدينة ضمن نسيج حضري متكامل، حتى يتعلم الإنسان: "المكوث ببيته هادئاً" (باسكال)، و"تدبير المتوحد" (بعبارة ابن باجة)، "البينونة" (بعبارة أبي حيان التوحيدي) وفقاً لشعار:

"Learn to be with yourself and let others be".

لائحة المراجع

- Blaise Pascal, Pensées, Hachette, 1950.
- Boèce, Consolation de la philosophie, Préface de Marc Fumaroli, petite bibliothèque Rivages, Traduit du latin par Colette Lazam, Paris 1989
- Céline Bonicco – Donato, Heidegger et la question de l'habiter. Une philosophie de l'architecture, Parenthèses, 2019, p. 7.
- Cicéron, La vieillesse, traduction française de Vincent Ravasse, Aout 200 », Québec
- Foucher Angèle. Cicéron et la nature. In : Bulletin de l'Association Guillaume Budé, n°3, octobre 1955.p. 32-49
- Martin Heidegger,« Bâtir Habiter Penser », in: Essais et conférences, Gallimard, Traduit de l'allemand par André Préau et préfacé par Jean Beaufret, 1958,pp. 170-193.
- Lucio Anneo Séneca, diálogos, estudio preliminar, traduccióny notas de Carmen codoñer, cuarta edicion, Tecnos, Madrid, 2016.
- Xénophon, Economique, TRADUCTIONFRANÇAISE-DE TALBOT, REVUE ET ANNOTÉE PAR M. DE PARIYAJO.V, Paris, 1886.
- ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن، ترجمة : د.علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. (صدر الكتاب في أصله الفرنسي عام 1975).

المدينة وصيرورات الحياة تأملات على هامش الجائحة

د. توفيق فائزي

أستاذ الفلسفة في جامعة مولاي إسماعيل،
المدرسة العليا للأساتذة، مكناس

تقديم

يتلقى الوعيُ الآثارَ من وقائع الزمان. وليست الوقائع سيَّان في تأثيرها، فمنها ما هو أشدُّ وقعاً. الوعي منفعلٌ بالتاريخ (Wirkungsgeschichtliches Bewußtsein) كما ينبهنا إلى ذلك غاداميرGadamer. وتحت سطوة الوقائع الشديدة يرى بعينٍ جديدة، ويُصغي إلى ما لم يكن يصغي إليه، ويتغير لحنُ عبارته. إلا أن الوعي لا ينقطع عن ماضيه. الوعي سيلٌ لا ينقطع، والماضي فيه موصول بالحاضر. ينجذب الوعي إلى ما يستأنسه من الماضي المماثل للوقائع التي يُجرِّبها، أو إلى ما يستأنسه من وعي غيره ممن جرّب فرضاً أو واقعاً شبيه الوقائع التي يجربها. نبحث للواقعة التي نشهدها الآن عن مثيلاتها. وصرنا نلتفت إلى أوبئة وجائحات مضت. نقيس غائبا على شاهد. ينجذب وعينا أيضاً إلى من استبق الفهمَ من الماضين. ما إن ارتفع بعضٌ من حجاب الجهل عن هذا الذي نجرِّبه الآن، حتى انجذب الوعي إلى من انكشفت له الدلالات من السابقين. لا شك أن لكل واحدٍ منا وجهةٌ هو مولِّيها من الدلالات التي تنكشف لوعيه، وسيختار من الماضي مراجعه وأسانيده. فما الذي عنّ لوعي فرد من الناس هو كاتب هذه الكلمات من الدلالات؟ سأكتفي بثلاثٍ، أولاها الحياة، وثانيها المدينة، وثالثها ما بين المدينة والحياة.

1ـ عالم الإنسان وعوالم الحي والشبيه به

كم نحن في حاجة إلى مزيد ارتياضٍ على التخلص من النظر إلى أننا ذواتٌ في مركز العالم. أقول: مزيد ارتياض لأن هذا الارتياض أو الدعوة إليه ابتدأ منذ زمان، وليس وليد الواقعة الآن. الإنسان عالمٌ بين عوالم أخرى."عوالم الحيوان وعالم الإنسان" عنوان كتاب ألّفه ياكوب فون أكسكول Von Uexküll Jacob[1] وهو سندٌ من أسانيد الفطنة التي نعرضها في هذه المقالة. مثّل بعوالم القُراد Tique والذباب والنحل وحيوانات أخرى، ونضيف عوالم الشبيه بالحي كالفيروس الذي نشهد اجتياحه عالمنا. بل نضيف أيضاً عوالم أقدم من الحياة وأشباهها. عوالم في عالمٍ نفترض افتراضاً أنه واحدٌ، ونفترض أنه جامعٌ، من أجل فتح إمكانية تدبير جماعي. الجزء الحي والشبيه به من العالم وكيف يُدبر الأمر فيه موضوعُ علم هو الأيكولوجيا (Ecologie). هو علم تدبير منزل الأحياء وأشباهها. ليس الإنسان بمفرده في هذا الجزء من العالم فهو بمعية غيره. ولكن عوالم الحي أو الشبيه بالحي، ليست عوالم خارج عالمه. فقد يوهم عنوان الكتاب بأنها عوالم لا تماس، معزولٌ بعضها عن بعضٍ؛ والأمر ليس كذلك. إنها عوالم تتصف بالنفاذية. هي عوالمُ متداخلة لا تخوم بينها، يخترق بعضها بعضاً، تنفذ ساكنة عالم إلى العوالم الأخرى. يقتات البعض من البعض الآخر. حتى أن الأمر بلغ بأحدهم وهو إمانويل كوتشيا Emanuel Coccia أن يرفض استعارة المنزل في الأيكولوجيا، حيث الإيهام بالمكوث والاستقرار. الأحياء في ظعنٍ دائم لا يستقر لهم قرار، "نحن مضطرّون إلى

---

[1] - صدر الكتاب في هامبورغ Hambourg بعنوان: *Streifzüge durch die Umwellen von Tieren und Menschen* عام 1934.

الانتقال وتغيير المسكن وتغيير جسدنا، أو على العكس أن نصير مسكن الغير، أن نجعل من لحمنا منزلا ليس لجسم آخر فقط، لكن وبالأخص لنوعٍ آخر أيضاً."[1]

الإنسان عالم يشتمل على عوالم من الكائنات الحية، من البكتيريا وغيرها تسكنه (تعدادها بالملايير، وأنواعها بالمئات). ولا ننسى أن فرضية أن تكون الميتكندريا (Mitochondrie) المنتجة للطاقة داخل خلايانا بكتيريا في الأصل.

يعود إمانويل كوتشيا إلى إحياء مفهوم إيكولوجي ليجعله النموذج في تصور العلاقة بين الكائنات، إنه نموذج الاقتيات (Nutrition) وهو دليل على عدم صلاحية نموذج التساكن أو المصاحبة. يؤسس الاقتيات للعلاقة بين الكائنات، وبتلك العلاقة يُنتج العالم وتُحدث الأمة الكونية[2]. يلتفت إمانويل كوتشيا إلى لحظات العبور، ونلتفت نحن إلى لحظات إقامة عابرة، فلندعه ونعُد إلى أكسكول حيث يقف على لحظات الاستقرار والتساكن والصحبة.

يبسط أكسكول الأمر حيث يرى أن لأي كائن حي، ونضيف أيضا الشبيه بالحي، مستقبِلا (Récepteur)، يحولُ دون مرور ما لا يُناسب مما لا يعني الحيوان في غيره. يختار فقط ما يستقبله من الغير مما له فيه غرضٌ وحاجة. وذلك يُمثِّل حدود عالمه، وما يدركه مما هو أعظمُ إحاطة. فكأنما ما يدركه هو الظاهر، والعالم الأعظم المحيط هو الشيء في ذاته بلغة كانط. ولكن الشيء في ذاته إضافي، وما يعتبره حيوان أو شبيهٌ به كذلك، ليس بالنسبة إلى غيره. هو يقتطع من العالم المحيط

[1] - Emanuele Coccia, « HORS DE LA MAISON, De l'alimentation ou de la métaphysique de la réincarnation », Multitudes, 2018/3, No 72, pp.101-108, p.108.

[2] - Ibid, p.107.

قطعةً هي وسطه، وهي عالمه الذي هو فيه ذاتٌ، وله فيه السيادة والتحكم. لكل كائن حيٍّ مستقبِل لا ينتخب إلا المناسب في الغير كحرارة المضيف وحامض البيوتريك (Acide Butyrique) بالنسبة للقُراد مثلاً، لرصد الضحية. ولا يعنيه في الضحية غير هذا. وكالفيروس الذي لا يعنيه غير نوع من أنواع الخلايا في غيره يتعرَّفها. وينتهي الأمر في الأخير إلى الفعل في ما رُصد. كنفاذ القراد في جلد الضحية، أو تكاثر الفيروس باستعمال الخلايا. شبّه أكسكول الأمر بالكماشة التي تشد الأمر من طرفيه، فمن طرف يُدرَك المناسب في المضيف، ومن جانب يُفعل في المضيف ما يُحقق غرضا حيوياً.[1]

للفيروسات مستقبلات، وهي ترصد الخلايا المناسبة للتكاثر باستعمال جينوم الخلية وإدخال تعليمات جديدة قصد التكاثر. قبضٌ مزدوج، قبضٌ بالقوة وقبضٌ بالفعل، قبضٌ إدراكيٌّ وقبضٌ حركيٌّ. فمن طرف يكون الرصد، ومن طرف يكون الفعل في ما رُصد. ولا يُلتقط من المحيط إلا ما يحمل خصائص إدراكية (Caractères perceptives)[2] أي أن ذات الحيوان لا تُدرك مما هو موجود إلا ما لها الاستعداد لأن تُدركه، ولا تدركه إلا لتفعل فيه مما لها حاجةٌ إليه، وكل إدراك يُفضي إلى فعل. فإدراك حامض البيوتريك يُفضي إلى فعل السقوط على الضحية، والتّماس مع شعيراتها يُفضي إلى طلب مكانٍ خالٍ منها حيث الإحساس بالحرارة للنفاذ في جلد الضحية، والنفاذ في جلد الضحية ينتج عنه امتصاص دم

---

[1] - « Pour parler par images, chaque sujet animal enserre son objet dans les deux branches d'une pince-une branche perceptive et une branche active » Jacob Von Uexküll, *MONDES ANIMAUX ET MONDE HUMAIN*, suivi de *THEORIE DE LA SIGNIFICATION*, Traduction de Phillipe Muller, Editions Denoël, Paris, 1956, p.23

[2] - Ibid, p.23.

الضحية وهو عَشاؤه الأخير، وهو بدوره يفضي إلى السقوط على الأرض وبعثرة بيضه. ضمن المئات من المثيرات الآتية من الضحية ثلاثٌ فقط تحمل خصائص إدراكية: حامض البيوتريك والشعيرات والحرارة. مثيرات لامعةٌ، يُشبِهها أكسكول بإشارات ضوئية محاطة بالظلمات، تُهديه إلى الهدف يقينا.[1]

ولكن ما الذي يجعلنا نحكم بوجود عالم واحد لا يدرك حقيقته إلا الإنسان؟ إنها لغة النوع التي تُعلمنا الحفاظ عليه، إنه نظام إدراكنا الموصول بنظام فعلنا. نظامان يرسمان لنا حدوداً لما يمكن إدراكه، ولما يمكن فعله مما يحافظ على حياة النوع مع حياة الأنواع الأخرى أو ضدها. قد يكون للإنسان فضلٌ على غيره إن اعترفنا بأنه وجهة نظر متفرِّدةٌ، عينٌ خارج هذه العوالم كلِّها. تُطل من أعلى على العالم الأعظم المحيط: المنزل الذي يتساكن فيه الجميع. وبإمكانه أن يتقمص وجهات النظر الأخرى. فينظر بنظر القُراد أو الفيروس أو النحلة، ويضع نفسه مكانها ويرى بعينها. ولكن، هل سيكون إدراكه محايدا؟ هل لزاوية نظره الفضل على غيرها؟ ليست بذلك زاوية نظرٍ بل الزاويةَ التي من خلالها يمكن النظر إلى جميع زوايا النظر؟

ليس إدراك الإنسان إدراكا محيطاً محايداً بل منفعلا بتاريخ الطبيعة. أي أن تاريخاً طويلا تَرَك أثره، وجعل إدراكه ووعيه مليئين بآثار التطور وما أفضى إليه. وإذا كان الإنسان بناءً اشترك في بنائه غيره، فإن إدراكه كذلك. وما لدينا من التمثلات عن الغير ليست تمثلات موضوعية. وفي تيار الحياة الذي يجمعنا بالغير لا نُدرك ما ندرك منه من الصور إلا بعد أن نفتعل الثبات في الديمومة، وحتى يحبس

---

[1] - « Dans le monde gigantesque qui entoure la tique trois stimulants brillent comme des signaux lumineux dans les ténèbres et lui servent de poteaux indicateurs qui la conduiront au but sans défaillance » Uexküll, Op.cit, p.26.

تدفق تيار الحياة واندفاعه بسدٍّ من الصور والتمثلات توهم بالتمايز والانفصال؛ تمثُّلات في خدمة إرادة انفصلت فتنكرت لإرادة الكل. الحياة عمل (Processus) ابتدأ ولم ينته، خلقٌ مستمر، تدفق دائب، سيلٌ عرِمٌ. لسنا إلا عتبة من عتباته، هو فينا، نعم نستعمله؛ ولكن يستعملنا أيضا، يخترقنا ويعبرنا ليستأنف سيره، لسنا نهايته ولا غايته ولا كماله.

لم ينته الخلق، خلقُ الحياة وغيرها، كما قال كانط: "ابتدأ يوماً لكن لن ينتهي أبدا. إنه في دائم الفعل ليجعل الطبيعة تخطو خطوة أخرى، لتُنتج أشياء جديدة، وعوالم جديدة. والعمل الذي أكملته الطبيعة متناسب مع الزمن الذي لم تنِ فيه لإكماله. ولا يوجد أقل من الأبدية لتملأ بعوالم لا تُحصى وبلا نهاية؛ كُلَّ الامتداد اللامحدود للمكان اللانهائي[1]". وما تُميز ملامحَه أبصارُنا ليس شيئا لو قيس بما يحيط بِنَا من العوالم اللامرئية. هذه العوالم اللامرئية من أنظمة الطبيعة هي ما يهيمن علينا ويشملنا. هي أقدم (ملايير السنين) وأعظم منه، ولا يحيط بكنهها وهي تحيط به. هذا الذي نُعت بالفيروس (Virus) نعتٌ بصفة توهم فيه الذكورة والقوة وتوهم أننا في مواجهته، ذلك بسبب انفصال ذواتنا عن الكل الذي ننتمي إليه. حُقّ لنا أن نستعمل استعارات كالمواجهة والمقاومة والحرب للحفاظ على حياتنا ولكن بوصفنا نوعاً، بوصفنا عالماً نتوهم أنه في مواجهة عوالم أخرى. كل ما نعتبره حقيقة يقف خلفه جيشٌ من الاستعارات كما يقول نيتشه. إدراكاتنا صورٌ وتمثيلات واستعارات ليست محايدة. هي في تبعٍ لإرادتنا.

[1] - Kant, Immanuel, *Universal Natural History and Theory of Heavens*, translated by Ian Johnston, Richer Resources Publications, 2008, p.107

لنعدِّد زوايا النظر، لسنا ذاتا إلا في وسط يبدو أننا نُهيمن عليه، ونجعل غيرنا قوتاً لنا. لكنَّنا أيضاً موضوعات في أوساط أخرى لم نكن ندركها. فجأة يجتاحنا الغير من أوساط أخرى فنصير قوتا له. على مائدة العَشاء حيث لا نأكل بل نؤكل. الوجود مأدبة كما تصور ذلك إمانويل كوتشيا. ويصحُّ القول إن الإنسان ليس حتى ذاتا بل وسطٌ (Milieu). وهذا الوسط ليس وسطا في ذاته، وليس له صورة محدَّدة نهائية، إذ يُتخذ وسطاً بصور مختلفة من أغيار. كلُّ غيرٍ يميز في الإنسان بوصفه وسطا علامة يتوجه من خلالها إليه، لاستعماله استعمالا خاصّاً يحافظ به على حياته. من زاوية نظر الأغيار يبدو الإنسان عالما مليئا بالدلالات، وحاملا بها (significations Porteur de).[1] وينتخب كلٌّ واحدٍ فيه دلالات تعنيه دون غيرها، وقد لا يجد فيه الغير أي دلالة، وقد يستجد الأمر فيجد فيه دلالة لم يكن يجدها من قبل، فكأنه صار يُميز بعد أن لم يكن يميز. ويمكن مماثلته بالغابة التي قال عنها فيرنر سومبار Werner Sombart.

"لا توجد غابةٌ باعتبارها وسطا محدّداً موضوعيا، توجد غابة حارس الغابة، وغابة الصياد، وغابة النباتي، وغابة المتنزه، وغابة صديق الطبيعة، وغابة جامع الحطب، وغابة مجتني التُّوت البرّي، وغابة قَصص الخيال حيث يضل عقلة الإصبع Petit Poucet"[2] كذلك الإنسان بالإضافة إلى غيره.

---

[1] - Uexküll, *Théorie de la signification* In *Mondes animaux*, Op.cit, p.93.

[2] - "Il n'existe pas de forêt en tant que milieu objectivement déterminé, il y'a une forêt-pour-le-forestier, une forêt-pour le chasseur, une forêt-pour-le-botaniste, une forêt-pour-le promeneur, une forêt-pour-l'ami de la nature, une forêt-pour-celui-qui-ramasse-du-bois ou celui-qui-cueille-des-bais, une forêt de légende où se perd

ليست تقوم الموضوعات بفضلِ إدراكنا لها، فيُدّعى أنها تزول بزوال ذلك الإدراك[1]. وليس إدراك الإنسان بالمرجع النهائيّ. للموضوعات وجودٌ مستقلٌّ خارج ما ندركه منها، وليست تنتظر الحكم النهائي عنها منَّا. وليست خارجَه يُحيط بها. هو المحاطُ منها. لا يُلامس بإدراكه إلا سطوحها، وينسحب باقي ما لم يدركه إلى سرداب يتوارى فيه خزّانٌ من ممكنات أخرى لانهائية من الإدراك[2]. هو نفسه موضوعٌ لانهائي لغيره، إذ لا يبلغ غيرَه منه سوى إشارات مُحاطةٌ بالظلمات. ولننطلق من الواقعة التي نُجرِّبها الآن. إذ لم يبلغ الفيروسَ إلا إشارات منَّا من داخل ظلمات محيطة، التقطها فقصدنا. لم يُدرك منا سوى سطح من سطوحنا، وتوارى الباقي منا لا يدركه.

2. الحداثة ووهم السيادة على الحياة

ترسخ في عهد الحداثة الوهم بأننا خارج العالم، وأن لنا وعيا شفافا به. انزوى الإنسان بفكره، وحاول أن يعالج مكانا كأنه خارج الطبيعة. وضع نظاما للإدراك هو الأكثر تجرُّدا وتعاليا، ونظاماً للفعل هو الأكثر فعالية. صيّر العالمَ مختبرا للتجريب، لإدراكٍ شامل محيط يتوسل بأنجع الأدوات. وأباد الفكرُ أي تمايز في الكائن، استبدلَ بالأمكنة الكيفية، أمكنة أرسطو الأليفة، وأمكنة عيشنا وعيش غيرنا

---

le petit Poucet" Cité par Uexküll, *Théorie de la signification* In *Mondes animaux*, Op.cit, p.97.

[1] - هو رأي الفيلسوف الإيرلندي جورج بيركلي George Berkeley (1685-1735).

[2] - نجد من أسانيد ما نعرضه في هذه المقالة، اتجاهٌ فلسفي رفع من شأن الموضوع مستنقذا إياه من إحاطة الذات، خصوصا في الاتجاه الذي صار يُعرف ب Object-oriented ontology، ومن بين أشهر ممثليه الفيلسوف الأمريكي Graham Harman، خصوصا في كتابه بعنوان: *Tool-Being, Heidegger and the metaphysics of objects*. تستلهم هذه المقالة بعضاً من أفكاره بشأن تصوره للموضوع.

الأنيسة، أمكنة باشلار Bachelard في "شعرية المكان"، مكاناً واحداً مجرداً رياضيا، مكان نيوتن أو كانط، أو مكاناً أبعد تجريداً. واستبدل بزمان حياتنا أو حياة غيرنا، زمانا واحدا موضوعيّاً ليس هو زمان العيش، منفي خارج أزمنة تجاربنا الكيفية إلا ما يُجربه الفكر المجرد.[1]

وعاد إلى منزل الطبيعة وقد عمِي، فلا يتميز له فيها فروقٌ نوعية، إذ قد اكتشف أن الكلّ يرجع إلى مبدإ واحدٍ هو الطاقة. وقد أوتي من القدرة على تحويلها والتصرف فيها وفق قواعد موضوعة. وصار المنزل كأنه تحت الارتهان الكامل ليأتمر بأوامرنا، وننال منه ما نريد. ونصير الطفيليّ بامتيازٍ، نقتات على منزل الطبيعة.

3ـ المدينة باعتبارها وسط الإنسان في عهد الحداثة

ناسب الانعزالَ داخل الفكر واعتبارُ ما عداه امتداداً تحمل به المادة، الانعزالُ داخل وسط من نوعٍ جديدٍ إنه المدينة الحديثة. في المدينة يحتفظ الإنسان لنفسه بمكانٍ معزولٍ، وقصر مشيد للاحتماء والامتناع. يتوهم أنه يُحرز فيه نفسه، ومنه يمكنه استعمال غيره من الكائنات الحية أو إبادتها.

لنتذكَّر أن الحداثة اقترنت بحرب ضارية ضد أشكال الحياة. حتى أشكال الحياة الإنسانية، بطلها شكل الحياة الذي هو الإنسان، وبحرب أيضا لعِرقٍ (Race) من البشر يعُدُّ نفسه الأرقى ضد أعراقٍ أخرى. فالصراع كان بين من تيقن باستواء إنسانيته، ضد من أوهم فيه عدم استوائها، فشبَّهه بالحيوان. وقد تجلّى الأمر في تنظيم

[1] - نجد أيضا في كتاب **عوالم الحيوان وعالم الإنسان** تحليلا ضافيا لأمكنة والكائنات الحية وأزمنتها. والعبرة الفلسفية منه، أنه لا يوجد مكان واحدٌ أو زمان واحدٌ، بل لكل كائن حيٍّ حدوسه للمكان والزمان، خالصةٌ لكلِّ واحدٍ منهم.

المدينة والفضاء في المستعمرات، وفي الأنظمة العنصرية. إن التدبير المدني الحديث تدبيرٌ حربيٌّ ضد أشكال الحياة الأخرى، ومنها أشكال الحياة الإنسانية. وتزامن تحسين النسل في الداخل وفق معاييرَ، مع الإبادة في الخارج. إبادةٌ مسّت الإنسان وغيره.

ولكن ما يجعل هذه الحرب متفردة هو أن السلطة في الحداثة تناولت الحياة بالتدبير الشامل. تحوّلت حقيقة السيادة. كانت السيادة في الاستحياء والإماتة بمعنى ضعيف، أن يستحيي صاحب السيادة من أراد قتله، وأن يقتل آخر: "أنا أحيي وأميت". ولكن صارت السيادة على الحياة بمعنى أقوى. تستجمع السلطة في قرار حفظ حياة الفرد والنوع كُلّ القوة التي في المعرفة الحديثة عن الحياة. تتدخل الدول بسياساتها الصِّحيَّة في الإنسان منذ البدايات.

وتمثلت السيادة في القدرة المطلقة على العناية بحياة الساكنة (Population) كما بيّن ذلك مشيل فوكو M.Foucault. صارت الساكنة معطى طبيعيا له قوانينه الطبيعية. وصارت السلطة بالمعنى الجديد تُسلِّم بهذا الأمر، ويكون تدخلها بالعمل على التصرف في تلك القوانين والتدخل فيها، بالحكم (Gouvernement) بدل السيادة المتعالية. تستلم السلطة الطفل من مهده، وتتملكه بالعناية والرقابة حتى اللحد. وتتحكم في حياةِ السَّاكنة بالرقابة على المواليد والوفيات، وبسياسات تحديد النسل أو توسيعه وتجويده.

ذلك ما نجد الحديث عنه في الجزء الأول من كتاب فوكو: Histoire de la sexualité، إذ يبين أن الهيمنة على الحياة بدأت تتنامى منذ القرن 17، واتخذت صورتين. وتعنينا الصورة الثانية التي محورها الجسد- النوع، الجسد باعتباره معبرا لميكانيكا الحياة، ودعامة للصيرورات الحيوية : التكاثر والمواليد ومُعدّل الوفيات،

مستوى الصحة ومدة الحياة ومعدل البقاء، مع كل الظروف المحيطة التي قد تجعل هذه الأمور متغيرة. يكون التكفل بفضل سلسلة كاملة من التدخلات والتحكمات: إنها سياسة حياة الساكنة.[1]

عامة، استعانت الدولة لحماية الوسط الإنساني وجعله منيعا بأنظمة صحية، وبسياسات صحية عمومية. وتوهمت أنه وسطٌ منيع يزداد مناعة بعد الحروب البيولوجية التي خاضها الإنسان، وحوّل انتصاراته إلى استراتيجية مستقبلية للمناعة، مناعة تُزرع في جسم كل فرد عبر برامج التطعيم (vaccination) الجماعي. ويكون التطعيم أو اللقاح بزرع مسبب المرض: فيروس أو بكتيريا وهو ميت أو قد غُيِّرت بعض خصائصه؛ في الجسم لاستثارة المناعة ضده. فكأن المُمرض (Pathogène) أسير حرب ذليل أو ميت، نعلن انتصارنا عليه في كل عملية تطعيم. تضع الدولة برامج للتطعيم الجماعي، ونقرأ في هذه البرامج تاريخا للصراع ضد أوبئة تؤرخ للحروب التي خاضها الإنسان. تأبيد لانتصارات سابقة.

4- حالة الاستثناء الحيوية

تأسس التدبير المدني على تدبير الحياة، وينكشف الأمر للعيان في حالة أُسمِّيها بحالة الاستثناء الحيوية (نسبة إلى الحياة). حيث لا يكون "العدوٌّ" إنسانا آخر فتكون الغيرية غير جذرية بل حينما يكون "العدو" حيًّا آخر أو شبيها بالحي، وتكون الغيرية جذرية. آنذاك يشتد الحرص على حفظ حياة الساكنة. وهذا لا يعني أن حياتها لم تكن مصونة فيما قبل، أي في العادي من الأيام. وتمحي الفوارق داخل المدينة (أو الدولة) بين العدو والصديق. ولا معنى لبقاء الفرق حينما يغشى الموجُ الجميع.

---

[1] - Foucault Michel, *Histoire de la sexualité, I Volonté du savoir*, Editions Gallimard, Paris, 1976, p.183

يكون احتضان الساكنة بالعناية المركزة علامةً على أن النظام السياسي في المدينة يقوم على تدبير حياة الساكنة، ولولا ذلك التدبير لما قامت له قائمة. وفي حالة الاستثناء الحيوية يتضح أن الخشية على الساكنة هو خشية على النظام السياسي أيضاً، خشية أن تعصف به وبالساكنة الجائحة على حدٍّ سواء.

تبيّنت في حالات الاستثناء الحيوية التي شهدتها الكثير من الدول في واقعة الوباء العالمية الأخيرة، وعلى حين غرة من الأنظمة، هشاشةُ الحياة في المدينة، وأن التدبير السياسي هو تدبير للحياة أولا، وأن السيادة تؤول في الأخير إلى القدرة على الفصل في أمرها. فلقد انكشفت حقيقةٌ لجميعنا: أن بروج المدينة المشيدة ليست بمعزل عن صيرورات الحياة التي تعبرها غير آبهة بالحدود التي وُضِعت. ويُشبه وهمنا وهمَ الأمير في قصة "قناع الموت الأحمر"(The Mask Of Red Death) لإدغار آلان بو Edgar Allan Poe. إذ انسحب الأمير وحاشيته ليلوذوا بقصر منيع غُلِّقت أبوابه، وقد اجتاح وباء الطاعون البلدة. وألهى الأميرُ من انتخبه من الحاشية بأفراحٍ تناسوا بها الموت الذي كان يحصد أرواحَ الناس خارج الأسوار. يغمرهم الفرح، ولا ينغصه إلا صوت ساعة داخل القصر بدقات مرعبة تذكرهم بالزمن الذي يمرّ. إلى أن أقام الأميرُ حفلة تنكّرية لا مثيل لها. وحضر الحفلة زائرٌ برع في التنكر في رداء الموت الأحمر، وارتدى قناعاً يرمز للموت. أنكره الجميع، ولما أرادوا النيل منه لم يجدوا وراء القناع ولا الرداء شيئاً، ووجدوا الموت اللامرئيّ حصدَ أرواحهم جميعا. خفاءٌ يذكّرنا بخفاء ما يجتاحنا الآن في وسط ظنناه منيعا سيعصمنا من الغير. لا عاصمَ اليوم ولا غداً من أن تتمكن منا صيرورات ليست للحياة وحدها، بل صيرورات طبيعية أخرى قد يكون الإنسان نفسه من استثارها. إن للأيكولوجيا الفضلُ في تذكيرنا بالمنزل المشترك: الأيكوس (Oikos)، منزلٌ يسكن فيه البعض في البعض الآخر، وليس مع البعض الآخر فحسب. إن طريقة تدبير الإنسان وسطَه

(المدينة) كأنها تناست هذه الحقيقة. فهو في منزل الطبيعة كان مستبِدّاً متسلطا، وتصرف كما لو أنه وحيدٌ في ذلك المنزل، أو في عزلة عن غيره، وكان التدبير حربيا ولا زال. وها هو وقد صار وسطُه مباحا. وانسحب من المدينة لتصير مرتعاً لغيره. صحيحٌ أن سياسة التسلط كانت ناجعة، وهي التي نجد تجسدها العنيف في تدبير الصين الأخير. وهو تدبيرٌ لم ينفصل فيه التسلط على ما أُرسل على المدينة مما ظنوا المدينة محصّنة ضده، عن التسلط على الساكنة، ويوشك بذلك أن يتحوّل إلى شمولية. ولكن هل سنعتبر هذه السياسة نموذجية، سواء في تدبيرها الداخلي، أو تدبيرها لما توهمته خارجها؟ سيعترف الإنسان أكثر الآن أنه ليس وحيدا في منزل الطبيعة. وألا حدود مرسومة نهائيا بين العوالم، وأن ساكنةَ عالم قد تُستضاف في عالم آخر. الفيروس في التخوم بين الحي والجماد، وبقاؤه لا يكون إلا في ضيافة غيره، وَفي مضيفه (Hôte) لا يعنيه إلا ما رصده وتعرف عليه من الخلايا المناسبة لتكاثره. ولكن كيف تغير المضيف؟.

5ـ تدبير المدينة وصيرورات الحياة

قد يُقال إن التدبير التسلطي والحربي ما زال التدبيرَ الأصلح. ونحن نشهد الآن حربا جديدة. ما يتعلمه الوعي فقط هو أن الإنسان لم يسُد بالكامل على منزل الطبيعة، بقيت بعض الثغور التي يلزَم مستقبلاً السيطرة عليها. وأن الإرادة الإنسانية ستنتصر في الأخير. أو قد يُقال إن الإنسان مثل سيزيف (Sisyphe) لن تنتهي حروبه أبداً. وأنه سيحمل الصخرة من جديد ليُعلن انتصاره مرة أخرى، دون أن تكون المرة الأخيرة؛ إذ عليه أن يرفع التحدي من جديد. إن الأيكولوجيا ذاتها قد تكون أداة تُستعمل فقط لدراسة المنزل لغاية التعرف على أوساط الكائنات الحية أو

الشبيهة بها. ومعطيات الأيكولوجيا ستُستعمل فقط لتفادي الآثار الجانبية، وتعبيد الطريق أكثر لآلة الاستغلال الجهنمي للطبيعة.

أو قد يُقال إن التدبير التسلطي أبان عن فشله، ونجد الكثير ممن استبق وفطِن إلى البدائل كمن اقترح عهداً جديداً مع الطبيعة[1]، أو من سعى إلى تأسيس مبدإ المسؤولية[2]. أو من حاول إحياء قداسة أضعناها للعلم أو للأرض[3]. قد يكون الملاذ أحياناً إحياء مذهب وحدة الوجود والحياة. ليست إرادتنا إلا إرادة منفصلة عن إرادة كلية وشاملة. وستكون الفضيلة الأسمى هي الرحمة والتعاطف مع كل أشكال الحياة[4]. ونجد في تحليل إمانويل كوتشيا السابق إشارات إلى مثل هذا الموقف. ففي الاعتراف بحقيقة ترحال الحياة، وألا أحد من الأحياء يملك مسكناً؛ دعوة إلى أن نقبل طائعين بالرحيل أيضا.

ومن جهتنا نلوذ بالواقعة التي نشهدها الآن فهي التي يُنتظر منها أن تُعلمنا وترشدنا بشرط أن يُتمّعن فيها، فلعل دلالات ذات قيمة نحظى بها. نتعلّم أن للواقعة التي نجرِّبها الآن، مثيلاتُها من الوقائع الدالة على وجود صيرورات لأنظمة الطبيعة الموغلة في القدم. صيرورات قد يتوهّم الإنسان أنها توقفت بتحكم الإنسان فيها، وهي لن تتوقف أبداً. إنها مثالٌ متفرد حقّاً لصيرورات جامحة وهائلة لا حدود لها، ومثالٌ لعظمة يمكن أن تفاجئنا فتجتاحنا بمدى واسع. حُقّ لنا أن نرتاب، وألا نطمئن مستقبلاً إلى وجود نظام مستقر يُوافقنا موافقة مطلقة. وعلى قدر الاطمئنان تكون

---

[1] - مشيل سير :Michel Serres في كتابه العهد الطبيعي « *Le contrat naturel* »

[2] - هانس يونا Hans Jonas، في كتاب مبدأ المسؤولية « *Le principe responsabilité* »

[3] - نجد سيد حسين نصر مثلا يدعو إلى إعادة مصالحة العلم بالمقدس، كما نجد الكثير ممن حاول أن يرجع للأرض القداسة التي ضاعت.

[4] - ما نجده لدى آرثر شوبنهور Schopenhauer Artthur في عمله العظيم *"العالم باعتباره إرادة وتمثلا"*.

المفاجأة. وليس نظام المجموعة الشمسية الذي هو من أكثر الأنظمة انتظاما في مأمن من الاختلال، فيُرسل علينا صيرورات مدمِّرة. إن ما يُنتظر منا بشأن هذه الصيرورات هو أن تُفحص حقيقتها مليّاً. هي موجودات متفردة، أغوارها بعيدة تتخطّف عقل الإنسان ووجوده بأعظامها الهائلة. فليستجب الإنسان لفهمها بسبر أغوارها، وقياس مدى تأثيرها على وجوده الهشِّ فوق الأرض. ليست الصيرورات الطبيعية وحدها ما يستحق أن يُفحص، بل أيضا ما يستثيره الإنسان من صيرورات جديدة في الطبيعة. ويُضيف الإنسان عبئاً جديداً على نفسه، إذ صار لزاما أن يتعرف ماذا تسبب له تدخلاته التي تعود عليه بالآثار. ولا يُستبعد أن يكون الوباء الأخير نتيجة لاستثارة الإنسان لصيرورة طبيعية انقلبت عليه. فقد يكون الفاعل إنسانيّاً تسبَّب في استيطان الفيروس الجديد جسدَ الإنسان، وتغييره للمضيف، فاتخذ سبيله إلينا.

ونتعلّم من هذه الواقعة أن صيرورات الحياة ليست خارج الإنسان، وليس مبرّأً منها، أو بمعزل عنها، والسبب هو أنها تنطوي جميعها فيه. ليس الإنسان باعتباره عالماً في عزلة عن العوالم الأخرى، إذ لا تخوم بينها كما رأينا. ليست للمدينة المناعة التي نتوهم. ليست المدينة بمأوى آمنٍ للإنسان، لا المدينةُ ولا المنزلُ ولا حتى جسده الذي يستوطنه الغير. وهذا يحتاج إلى تأسيس تدبير مدني ينطلق من الفطنة بأن المدينة ومن فيها مُحاطَةٌ لا مُحيطة بغيرها، وإلى توخِّي سياساتٍ للاحتراز بديلا للمجابهة والحرب، وسياسات تلطُّفٍ مكان سياسات التسلط. وهذا مبدؤه الفطنة بأن ثنائية الداخل والبرَّانيِّ ثنائيةٌ خادعة، فما نعدُّه برّانيّاً هو في داخل دواخلنا. ونتعلّم أيضاً أن إدراك الإنسان ليس بالمرجع النهائيِّ. ذلك أن إدراكه لا يمس إلا سطوح ما يحيط به، ويغمره من الموضوعات اللانهائية واللامرئية التي لا تنفكُّ تتوارى وراء ما يُدركه من ظواهرها.

المراجع:

- Emanuele Coccia, « HORS DE LA MAISON, De l'alimentation ou de la métaphysique de la réincarnation », Multitudes, 2018/3, No 72, pp.101-108.
- Foucault Michel, Histoire de la sexualité, I Volonté du savoir, Editions Gallimard, Paris, 1976.
- Kant, Immanuel, Universal Natural History and Theory of Heavens, translated by Ian Johnston, Richer Resources Publications, 2008.
- Jacob Von Uexküll, MONDES ANIMAUX ET MONDE HUMAIN, suivi de THEORIE DE LA SIGNIFICATION, Traduction de Phillipe Muller, Editions Denoël, Paris, 1956

الإنسانية بين رعب الكورونا.. وعطالة القراءات "المُخَلِّصة"

ذ. عبد الحق الزموري

مدير مؤسسة أبعاد للدراسات المستقبلية/اسبانيا

مقدمة

تعيش البشرية تحت وطأة "حرب" فرضها عليها كائن غريب منذ شهر ديسمبر 2019، عدوٌ لا تعرف له جنودًا ولا تشكيلات ولا آليات ولا استراتيجيات .. لا تعرف له وجها ولا صوتًا .. تُحسّ بوجوده "الغادر" و "المدمّر" فقط عندما يتمكن منك .. دون تمييز أو فرز أو ترتيب بين البشر. شبّهه مرّة إدغار موران بالبوليس السري للنازية (الغستابو): "لا تراه أبدا .. تحتاط منه غايةً .. وفجأة يتمكن منك فتختفي إلى الأبد".

هو ليس بالجسم الحي، مجهري الحجم، فاقد الوجود إلى حين تلبّس خلية في جسم الإنسان ... فيوجد. وجوده رسمٌ بتحوله، وبإظهار قوته التدميرية الخارقة، وباختصاره للزمن، بل وبقدرته الفائقة على التطور النوعي إضافة إلى التكاثر الكمي.

ورغم أن البشرية رسمت لهذا "العدو" سيناريوهات متعددة منذ سنوات، إلا أنها وجدت نفسها شبه عاجزة عن احتوائه والتصدي له بعد أكثر من ثلاثة أشهر من إعلانه التحدي.

تنقسم ورقتنا هذه إلى قسمين، نحاول في الأول رسم سؤال الجائحة: كيف ولماذا؟ وفي الثاني نجيب عن عالم ما بعد الكورونا، بأي معنى، وأي بديل كوني.

الصدمة: تراكم المعارف و"تفاهة" الممارسة

كثيرة هي الكتب الاستشرافية التي صدرت منذ عدة سنوات محاولة رسم بعض مآلات ما وصل إليه الإنسان من تطور صناعي وتقني في التحكم، ولكن أغلبية ساحقة من أولئك الذين تنبؤوا بانهيار النظام العالمي الحالي بنوا تحليلاتهم على المُخرجات المادية للحضارة المعاصرة وأثرها على تفكك المجتمعات. ورغم دقة بعض تلك المحاكمات الاستشرافية لما يمكن أن تعيشه البشرية في مواجهة الكوارث وكثافة تفاصيلها، إلا أن جائحة كوفيد 19 (فيروس كورونا الجديد) كشف وجها مختلفا تماما لعجز الإنسان أمام أزمة صحية، تبدو "تافهة" في بدايتها، عصفتْ بأغلب (أو كلّ) "مُنجزات" العوْلَمَة.

لا شك أن لحظة الكوارث والأزمات الكبرى تُعتبرُ قوة دفع فارقة في تطور المعرفة، وتُفرزُ سجلات جديدة من البراديغمات والمفاهيم والمصطلحات، كما يذهب إلى ذلك "توماس كون" في كتابه "بنية الثورات العلمية".[1] ولا شك أيضا أن جائحة الكورونا وتداعياتها الضخمة على كافّة مناشط الإنسان جعل منها لحظة تحول نوعي في التطور البشري، وبالتالي سيستدعي مراجعات جوهرية في التعريفات والأدوار والممارسات والرؤى إلى المستقبل، وما يتطلبه من إعادة رسم الشبكات الأفقية والعمودية في إدارة الكون.

[1] - توماس س. كون، بنية الثورات العلمية. تر. حيدر حاج إسماعيل. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007. أنظر على سبيل المثال قوله ص 206 "فالعلماء الذين يقودهم براديغم جديد يتبنون أدوات جديدة وينظرون في أمكنة جديدة"

زاد الجدل العلمي والأكاديمي والثقافي العام في الأسابيع الأخيرة حول تفكيك جائحة الكورونا وفهم الأسباب التي جعلت الإنسان الكوني "عاجزا" عن التصدي لها، ومحاولة استشراف مستقبل البشرية بعد انجلاء الوباء.

تتوزع تلك التفسيرات والسيناريوهات وتتنوع، وقد لخّصت المجلة الأمريكية "فورين بوليسي" عددا منها في الملف الذي استطلعت فيه آراء 12 مفكرا كبيرا من مختلف أرجاء الأرض حول مستقبل العالم بعد الجائحة.[1] ولكن المقاربات (جميعها) كانت متمحورة بالأساس حول التحولات السياسية والاقتصادية والعلاقات الدولية وما يتبعها من تشكل المجتمعات والدول.

نفس الصورة نجدها لدى المصري محمد عبد الله يونس الذي يؤكد إن المصطلحات الأكثر شيوعا خلال هذه الأزمة هي: سياسات الأوبئة / ارتداد العولمة / سياسات الانعزال / تصاعد الأمننة / مجتمع المخاطر العالمي / الثقة السياسية / قومية الكورونا / إقتصادات الكورونا / رأسمالية الكورونا.[2]

---

[1] - How the World Will Look After the Coronavirus Pandemic ; The pandemic will change the world forever. We asked 12 leading global thinkers for their predictions. Foreign Policy Magazine; March 20, 2020, https://foreignpolicy.com/2020/03/20/world-order-after-coroanvirus-pandemic/

[2] - د. محمد عبد الله يونس، كيف ترسم المفاهيم المتداولة ملامح عالم ما بعد الكورونا. المستقبل للدراسات والأبحاث المتقدمة، أبو ظبي، سلسلة دراسات خاصة، ع 2، 29 مارس 2020

كما نجد نفس التركيز على تلك الأبعاد الاقتصادية والجيو-استراتيجية في قراءة الجائحة واستشراف ما بعدها في الدراسة الطويلة التي نشرها د. محمد الشرقاوي تحت عنوان "التحولات الجيوسياسية لفيروس كورونا وتآكل النيوليبرالية".[1]

تواترت وتباينت المقاربات – المواقف حول الجائحة، وقدم بعضهم قراءات كلّية تقترح نظاما تحليلياً تُرجع إليه أسبابها وتفسر به مسارها وتقترح طبقًا له "طرائق للخلاص" الفردي والجماعي؛ هناك من نظر إلى الجائحة من زاوية "الحدث العادي" رغم استثنائيته، ولم ير فيه أي "أمل" في تغيير جذري في مسار العالم. كتب د. عزالدين عبد المولى مدير الدراسات في مركز الجزيرة للبحوث يوم 24 مارس على صفحته في الفايسبوك تدوينة بعنوان: "لن يغيّر كورونا العالم كما يتمنى البعض أو يتوهم" مؤكدا أنْ " سيكون عالم ما بعد كورونا كما كان قبلها".[2] طبعا لا يتفرد الدكتور عبد المولى بهذا الرأي، بل نجد عديد المراقبين والمحللين غربا وشرقا يصدرون عن هكذا مقاربة، ولعل من بينهم عالم المستقبليات المعروف د. وليد عبد الحي الذي يؤكد وقوفه على النقيض تماما من الرأي القائل إن كورونا ستقصم ظهر العولمة، رغم أنه يؤكد في مقالته أنه يفرّق "بين ظاهرة العولمة كعملية إجرائية (*Process*) وبين المنظور المعياري لها (*Normative*)"، وأن موقفه الذي يبني عليه تحليله يخص الوجه الأول للعولمة، يقول: "ما أريد التركيز عليه هو سؤال محدد:

---

[1] - د. محمد الشرقاوي، "التحولات الجيوسياسية لفيروس كورونا وتآكل النيوليبرالية". الدوحة، مركز الجزيرة للدراسات، 30 مارس 2020.

[2] - مع الإشارة إلى أنه عدّل من موقفه ذاك لاحقا. أنظر مقاله في موقع مركز الجزيرة بعنوان " ما القوة الحيوية؟ كورونا واختبار المفهوم التقليدي لقوة الدولة" مستعملا في عنونة إحدى فقراته عبارة "خلاصات لعصر ما بعد كورونا"، مؤكدا على تغيّر بوصلة النظر للعلاقات الاجتماعية والسياسية.

https://studies.aljazeera.net/ar/article/4623?fbclid=IwAR3gXSIJFOMerM1pYwmeN0l2a6qdfmmIw3hxVQIlINF5FEvd90EY7-xVPEA

هل سيسير المجتمع الدولي نحو تمزيق خيوط عنكبوت العولمة ... أنا أقول لا مع الإقرار بأن عملية النسج ليست ذات طابع خطي".[1]بل إن الفيلسوف الفرنسي آلان باديو ما فتئ يُصرّ على أن الوباء الكوني الحالي، كغيره من الجوائح السابقة، لا يطرح شيئا استثنائيا جديدا، ويذهب إلى حد القول "إن الدرس المستفاد من كل هذا واضح: إن الوباء الحالي، مثل أي وباء، لن يكون له عواقب سياسية كبيرة، على الأقل في بلد مثل فرنسا".[2]

لا أعتقد إن هذا الرأي يصدر عن استخفاف بحجم الكارثة الوبائية، بل لعله يرى في تعقد الشبكات التي نسجتها النيوليبرالية في مرحلة تطورها الرابعة، وصلابة أدوات هيمنتها على العقول وعلى الموارد المادية قدرة على تكييف مخلفات الكورونا والاستفادة من الأوضاع الجديدة التي ستفرضها، كما ختم عبد الحي مقالته، "والمؤشرات التي أشرت لها سابقا ستكون استراتيجيتها القادمة هي لا وقف العولمة بل " تنظيمها أكثر" والتنبه لأبعاد جديدة بغض النظر عن التقييم المعياري لها، فالعنكبوت باق، والنسج مستمر وبطرق جديدة وقديمة، وقد تُحدِث الصدمة بعض الارتداد لمدة عامين أو أكثر ثم تعود حليمة لعادتها القديمة".

هناك أيضا مقاربات ترتكز إلى ما يُعرَفُ بـ"نظرية المؤامرة"، والتي تزدهر سردياتها في الأزمات الكبيرة، وتنتعش أذرعها (نظريات نهاية العالم، التفسيرات الدينية القُصووية، سرديات أفلام الخيال العلمي المرتبطة بفناء الحضارة الإنسانية

---

[1] - وليد عبد الحي، "العولمة بين الكورونا والواقع الدولي". 28 مارس 2020

https://www.rawafidpost.com/archives/5012

[2] - Alain Badiou ; sur la situation épidémique. Tracts de crise, Gallimard, n° 20, 27 mars 2020.

الحالية ...الخ). يستوي في ذلك الإنجليزي دفيد أيك الشهير،[1] والتيارات القائلة بأن "الهلع المُعَوْلَم يُدار بشكل مُصطَنَع"، يلعب فيه الإعلام المُتَحَكِّم به كونيا دورا رئيسيا، ويعتمدُ على افتعال الصدمة، فتحويلها إلى أزمة، ثم إدارتها.[2]

ويستوي في ذلك أيضا القائلون بتورط إحدى الدولتين (الصين وأمريكا) في نشر الفيروس لأهداف جغرا – سياسية في علاقة بالصراع الكوني، وكذا بعض المتدينين (من كل الديانات السماوية وغير السماوية) الذين يقرؤون الجائحة في ضوء غضب الله على سكان الأرض بسبب ابتعادهم عن التعاليم.[3]

ولكن تبقى المقاربات الأكثر انتشارا هي تلك التي تبني تفكيرها في عالم "الما – بعد" على تفكيك المستوى الذي وصلته العوْلَمة ونتائجها المتمثلة بالأساس في "جبروت النيو ليبرالية" وانحرافات جشع المال التدميرية للإنسان وللأرض. يتفق هؤلاء في التوصيف (مع اختلافات جزئية حول مسؤولية الأسباب)، ويتفقون في القول بضرورة التغيير (هل هو حتمي أم إرادي؟)، ولكنهم يختلفون في الاستشراف، وينقسمون إلى قسمين كبيرين:

---

[1] - أنظر على سبيل المثال آخر مقابلة معه حول جائحة الكورونا يوم 18 مارس 2020 في:
https://www.youtube.com/watch?v=_9bHgivxXfw

[2] - أنظر على سبيل المثال واحدا من الفيديوهات العديدة جدا المنتشرة في الشبكة العنكبوتية:
https://www.youtube.com/watch?v=1w_jVdktlWI&feature=youtu.be&fbclid=IwAR2G-NWDlOIT79YTHzEscJB5hdkTEl-rCil1nnOwxGjOxq9jROqxkb_YlxE

[3] - إقبال الغربي، التفسير العقابي لوباء الكورونا. موقع تعددية، الثلاثاء 31 مارس 2020. التفسير-العقابي-لوباء-الكورونا

https://taadudiya.com/?fbclid=IwAR3CNgHFLHN-x2AIWVN-iPR_nRBNnhWeyiafmliSH18lKmEHVu7xj5W-j6A .

- الأول، وهو الغالب الأعمّ، يختار البقاء ضمن مَرْوَحَة واسعة في نفس الصندوق الكبير. نجد من بين هؤلاء المناهض منذ سنوات لما وصل إليه النظام الرأسمالي، وهو يرى أن الجائحة ستقصم ظهر العَوْلَمَة، مثل الفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه الذي يذهب في واحد من حواراته الأخيرة إلى وصف ما يقع اليوم بـــ: "الزلزال الفكري والأيديولوجي [الذي تخلفه الكورونا]، وهو زلزال فارق. لقد ماتت العولمة الليبرالية، أي أن المبدأ الذي تقوم "التجارة السائلة" على أساسه بتعديل جميع المشاكل لم يعد صالحا... نحن في حاجة إلى خوارزمية سياسية جديدة." ولكن هذه النتيجة التي توصل إليها لا تُخفي حذره من مسار هو بصدد التشكل، إذ رغم وصفه للجائحة بأنها "شرنوبيل صحي"، إلا أنه يعتقد "إننا في مسار يقظة ... نحن نعيش اختبارا سياسيا حقيقيا على نطاق واسع"، وهو يقصد بالتحديد النظام الديموقراطي الغربي الذي يتمسك به كسلاح في الحرب ضد الجائحة،[1] وهي نفس مقاربة عديد الخبراء والمفكرين الغربيين مثل جون ايكنبيري أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة برينستون.

وإذا كان البعض يعتبر أن ما يجري يمكن أن يكون "القشة التي ستقصم ظهر البعير، لا سيما على مستوى العولمة الاقتصادية" (مدير مركز "تشاتام هاوس" للأبحاث بلندن، روبين نيبليت مثالا)، فإن بعضهم الآخر يرى الحل في تغيير مركز تلك العولمة إلى الشرق (كيشور مهبوباني عميد كلية لي كوان يو للسياسة العامة

[1] - Marcel Gauchet : "C'est un réveil du politique". Propos recueillis par Martin Legros; Philosophie Magazine, Mis en ligne le 17/03/2020.
https://www.philomag.com/lactu/marcel-gauchet-cest-un-reveil-du-politique-42738.

التابعة لجامعة سنغافورة الوطنية على سبيل المثال).[1] وقد لخّص أحد الباحثين[2] طروحات هذا التيار الواسع في رؤية ما بعد الكورونا، في أكثر المطالب تداولا في العالم التي ترسم ملامح المرحلة القادمة، وهي: إعادة هندسة النظام الدولي / صدارة الدولة القومية / مراجعة جدوى التكامل الإقليمي / تصاعد الجدل حول نهاية العولمة / تحديد مصير الشعبوية / اتجاهات المحاسبة السياسية / الاهتمام المتزايد بالعلم والمعرفة/ مراجعة نظم الرعاية الصحية.

- التيار الثاني هو ذاك الذي يركز في تحليله لمآلات الجائحة على البعد المعياري للعولمة، متراوحا بين الدعوة إلى ضرورة قيام "بنية ديمقراطية أخلاقية ودولة أخلاقية كصيغة مناهضة لأطروحة النيوليبرالية وتفريعاتها الأنيقة بمسمَّى الرأسمالية الأخلاقية"،[3]وبين من يعتبر أن "النموذج الأسواقي" الذي حولت العولمة الرأسمالية الإنسان طبقا له إلى سلعة، قد "دخل مرحلة من السيولة والعدمية لا يمكن الإمساك فيها بشيء"، ويعتبر الوباء فرصة لإعادة بناء حياتنا حول الإنسان حريةً وكرامةً واستخلافا. ولكنه لا يجد من أفق عملي لذلك التغيير في المعنى سوى الرهان "على الدولة الوطنية في تلاحمها وانسجامها، وفي استثمار كل إمكاناتها، وفي تأهيل كل قطاعاتها، وفي تفاعل كل مكوناتها، من أجل إسعاد إنسانها واسعافه عند الضرورة".[4]

نحن لم نغادر الصندوق. ولكن هل المطلوب مغادرته أصلا؟

---

[1] - Foreign Policy Magazine ; Idem.

[2] - محمد عبد الله يونس، نفسه.

[3] - الشرقاوي، نفسه.

[4] - الدكتور سعيد شبار، "كورونا، واستعادة مفهوم الإنسان والقيم الإنسانية". موقع مركز أفكار للدراسات والأبحاث، 28 مارس 2020.

يذهب أحد الدبلوماسيين التونسيين السابقين إلى أن "قلب الأولويات بخصوص احترام الحياة البشرية لا بد أن يكون في أساس السياسات العمومية"،[1] أي أن يُعاد التفكير في "المعنى" الذي أسبغته الأنظمة المعيارية النيو ليبرالية للعولمة، وكذلك لل"مبنى" الذي انتظمت داخله نشاطات الأفراد والدول. ف "الفيروس يفكِّر خارج الثنائيَّات الفكريَّة البشريَّة. والفيروس يُميتُ فيما وراء الخير والشرّ البشريَّين. وملامح الزّمن ما – بعد – كورونا هي على نحوٍ مزدوج: الموت العاري وانهيار الأفكار" كما يقول د. سالم العيادي.[2]

"بعوضة النمرود" .. تأملات معيارية

عرفت البشرية الأوبئة والجوائح منذ آلاف السنين،[3] وكان أشهرها جائحة الطاعون الأسود منتصف القرن الرابع عشر[4] والأنفلونزا الاسبانية 1918 – 1920

---

1 - Hédi ben Abbes ; Peut-on espérer un avant et un après Corona ? Business News, 19/03/2020,
https://www.businessnews.com.tn/peut-on-esperer-un-avant-et-un-apres-corona,526,96355,3?fbclid=
IwAR2HTyBrLBtlDyxhLqv2tHz48GEzZiXUEjgi5dyYjB3ajafDYOM2rZwJFMY

2 - سالم العيادي؛ الموت العاري وانهيار الأفكار: تأمُّلات في "ما- بعد -كورونا" . موقع نيوز برس، 31 مارس 2020.

3 - فطاعون أثينا الذي ظهر في الفترة من 430 إلى 426 قبل الميلاد ذهب بربع سكانها، ولم تُعرف أسبابه إلا عام 2006، عندما حلل باحثون من جامعة أثينا سن متعافٍ من مقبرة جماعية موجودة تحت المدينة، واستطاعوا معرفة البكتيريا المسببة لحمى التيفوئيد.

4 - نشرت نتائج الحفريات التي نفذها فريق من الأركيولوجيين الأنجليز في سميثفيلد الشرقية وبالتحديد في مقبرة أنشئت بشكل طارئ في لندن لدفن موتى الطاعون الأسود، في كتاب جماعي صدر عام 2008، بعنوان:

التي أصابت حوالي 500 مليون شخص في العالم، وحصدت (حسب الدراسات الحديثة) ما بين 50 و 100 مليون في قارات مختلفة.[1]

وبقطع النظر عن التفسيرات المتباينة حول أصل الفيروس وموطن منشأه وعوامل انتشاره وتداعياته المرتقبة على الحضارة الحالية،[2] فإن جائحة كوفيد 19 وضعت الإنسان أمام مرآة الأسئلة الوجودية الأصلية التي طالما تكفّلت "الحداثة" بكل مُخرجاتها بمهمة الإجابة عنها في مكانه: لماذا يحيا؟ لماذا يموت؟.

أسقطت الجائحة بشكل واسع وسريع كل الوساطات بين الإنسان ومعناه، وعاد سؤال المعنى يؤرق البشرية بشكل لا تراتبي، بشكل متساوٍ. أعتقد إن هذا هو أول درس، وأعظمه، تحدّى به أدقّ جسم في عالمنا (كورونا) أعظم كائن فيه (الإنسان-الإله). تبدأ "سيولة" المعنى عندنا من المصطلح الذي أطلق على الوضع الوبائي الحالي في اللغة العربية؛ فقد وقع التواضع (أمميا) على إطلاق لفظة *pandémie* على هذا الوباء، وعرّبوها إلى "الجائحة". يعود أصل الكلمة "في اليونانية القديمة إلى *pãn* (كل) و *dẽmos* (الشعب)، وتعني الوباء المنتشر في منطقة

Lynne Cowal, Ian Grainger, Ducan Hawkins, Richard Mikulski, (ed). The black death cemetery, East Smithfield. London, Museum of London Archaeology Service, Monograph 43, Museum of London, London, UK, 2008. 64 pp

[1] - الإنفلونزا الإسبانية، ويكيبيديا الموسوعة الحرة. الإنفلونزا_الإسبانية

https://ar.wikipedia.org/wiki .

[2] - يعتقد الدكتور طلال أبو غزالة أن الجائحة ليست أكثر من مقدمة لحرب عالمية ثالثة مؤكدة (وضرورية) سيكون طرفاها الرئيسان الولايات المتحدة الأمريكية والصين، وستنتهي بالاتفاق على قيام نظام عالمي جديد برأسين أو برؤوس متعددة. أنظر المقابلة التلفزيونية مع قناة سكاي نيوز في برنامج مواجهة يوم الخميس 2 أفريل 2020. https://www.youtube.com/watch?v=QvpdrSomLT4

جغرافية واسعة من العالم، يصاب به جزء كبير من سكانه. وتظهر الأوبئة عند حصول اختلال فارق في التوازن، ناتج عن تغيّرات اجتماعية وبيئية في مرحلة من مراحل التاريخ".[1] بُنيَ التركيب المصطلحي اللاتيني هنا إذا على حجم الإصابة، وليس على سببها أو أثرها أو شكلها، "جميع الناس".. يصبح الوباء (*épidémie*) جائحة (*pandémie*) عندما يصيب عددا معينا من البشر، أي يستحيل المرض القاتل إلى مجرّد رقم كبير.

أما الجائحة (من الجّوح) فهي في "لسان العرب"[2]تدور على معاني الاستئصال والمصيبة والهلاك والشدّة. وقد استُعملت في شعر منسوب إلى هُناءة بن مالك بن فهم الأزدي عام 231 م يرثي أباه بمعنى "المصيبة تستأصل المال ونحوه":

حلّتْ على مالِكِ الأملاكِ جائحةٌ   هدّتْ بناءَ العُلا والمجْدِ فانْـفَصَدا

كما استُعمِلتْ في سياق فتك الدهر بالرجال (عام 600 م):

وأبـاد إفــريقيسَ بعـد مَـقامِهِ   فـي المُلْــكِ بالمُستَغرِقِ المُجتاحِ

(شعر قس بن ساعدة).[3]

لا يحضر الموت إلا عرَضًا في معاني الجائحة في اللغة العربية، وكان التركيز على الكسْب أكثر منه على الإنسان، لذلك يُقال للجراد جائحٌ لأنه يُهلك الحرث والزرع والثمر، وقد "روى الأزهري عن الشافعي قال: جِماعُ الجوائح كل ما أذهبَ

---

[1] - https://fr.wikipedia.org/wiki/Pandémie

[2] - ابن منظور (تـ 711 هـ)، لسان العرب. بيروت: دار صادر / ط 3، 1414 هـ. ج 2 ص 430.

[3] - معجم الدوحة التاريخي للغة العربية. مادة "جوح"

https://www.dohadictionary.org/dictionary

الثمر أو بعضها من أمر سماوي بغير جناية آدمي".[1] (!!!)

الحقول الدلالية لمصطلح الجائحة عند العرب غلَبَتْ عليها معاني بعيدة عن موت الإنسان، وتصيب ما حوله بشكل مباشر. وقد تواصلت تلك المعاني في القواميس العربية إلى حدود القرن 18 م. ففي "أجوبة" القاضي عظوم على سبيل المثال (كان حيا عام 1604 م) نجده استعمل المصطلح 48 مرة، وقَصَرَهُ على ما يصيب الغلّة بإجمال، يقول في الجزء العاشر على سبيل المثال: "وقولي: والدود جائحة الخ، الجواب في الشامل: والجائحة ما لا يمكن دفعه من سماوي وكَرِيحٍ سماوي فقط لا سارق على المشهور، وقيل والسارق، وقيل إن لم يعرف وإلا تبعه المشتري مَلِيًّا وغيره وما اتصل بها من جَرَادٍ أو نار أو سموم أو بَرَدٍ أو غرقٍ أو مطرٍ أو طيرٍ غالب أو دودٍ أو عفَن أو سقوطٍ كَرِيحٍ قبل كمال طيبها ففيه الجائحة على المشهور. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق".[2]

ولكننا نجد إشارة لطيفة في "لسان العرب" لمعنى فرعي يذهب منحى آخر في تعريف الجائحة: "يقول ابن الإعرابي (...) وجاحَ يجوحُ عَدَل عن المَحَجّة إلى غيرها"، أي أن الانحراف عن الطريق السويّ مسبّب للاجتياح والهلاك. وقد نجد عند العرب تعبيرات أخرى لوصف حالة الموت الجماعي بسبب قاهر، لعل أحدَها الفناء. وقد جاء في شعر عمرو بن قميئة البكري (في حدود 539 م) قوله:[3]

---

[1] - نفسه.

[2] - أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عظوم المرادي؛ كتاب الأجوبة. تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة. تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2004. 11 جزءا.

[3] - معجم الدوحة التاريخي للغة العربية. مادة (ف ن ي)

https://www.dohadictionary.org/root/ فني

قد كان من غسّانَ قَبْلَكَ أمْـلاكُ ومـــنْ نَصْرٍ ذَوُو نِعَمٍ

فتتوَّجوا مُلْكـًا لهُـــمْ هِمَــــمٌ ففَنُوا فَناءَ أوائـل الأمـم

والطاعون عند العرب اسمٌ لكُلِّ وَباءٍ عامٍّ يَنتَشِرُ بِسُرعةٍ. ولكن المعاني الحديثة التي ضُمِّنت لمصطلح الجائحة ربطا له بالإنسان وإضافة عدد المصابين وعدد الوفيات كعناصر أساسية للتعريف فهي مأخوذة عن المعجمية اللاتينية الحديثة.[1]

يذهب بعض علماء الاجتماع المعاصرين إلى توصيف ما نعيشه اليوم جرّاء أزمة كورونا بـ"مجتمعات الجائحة"، ويسعى منير السعيداني (أستاذ علم الاجتماع بالجامعة التونسية) إلى تعريف المفهوم الذي يشتغل عليه معتبرا أن المجتمع "تلبّس الجائحة ليصبح جزءا منها (كنمط حركة)، فالفيروس "يفرض تغييرا جذريا في كيفيّات عقد الصلة الاجتماعية وطُرق التصرُّف، ومنطق تدبير اليومي وُصولا إلى آثار اقتصادية وسياسية وأخلاقية لما تزل تُخومها غير قابلةٍ للحصر... ذلك أُننا نعيش، منذ عُقود، الانتشار الجائح للعديد من مظاهر الحياة ومن الظواهر والممارسات والمشاعر والانفعالات".[2]

التعريف والمَفْهَمة جزء من رؤية للوجود، وخلفية في رسم معالم تشكيلاته وحدوده. وهو مدخل مهم – في مسألة الحال – لتحديد الأرضية التي نقف عليها بإزاء الجائحة (تعليلا وتفكيكا) والتفكير فيما يليها (أو ما نسميه الما بعد).

أعتقد (وغيري كثير) إن السبب الأول والرئيسي للجائحة يعود إلى اختلال

---

[1] - https://ar.wikipedia.org/wiki/ جائحة.

[2] - منير السعيداني، مجتمع الجائحة.

https://www.academia.edu/42452283?/fbclid=IwAR1n4DU6FiadGKOr0kr4E56nbl-yApkJHE9TORSedWxoiPfp2J9JFzLlN3A

فارق في علاقة الإنسان بالطبيعة، وإلى انهيار كلّي لمصفوفة القيم الهادية التي تعطي لرؤيته للعالم معنى (بقطع النظر عن تفاصيل ظهور فيروس كوفيد 19 وانتشاره). جعل الإنسان مدار حركته، مع نهاية الألفية الثانية، وبشكل كامل، الربح والتأله مع ما استتبع تطبيقاته من ظُلم وعدوان، ونزع تدريجي لأخْلَقَة حركة الإنسان وكسبه. أصبح الهم الأوحد مع النيو ليبرالية مزيدا من التحكّم واستبعادا ممنهجا للإيطيقا. وكانت النتيجة أن يجد الإنسان (الأعزل) نفسه اليوم مجرد رقم في إحصائيات ضحايا الفيروس في مقابل حقيقة الموت العارية...وما يسبقها من رعب من مصير محتوم لم يتهيأ له.

كان المركز في القرن الماضي هو رجل الاقتصاد وخبير المال والأعمال، عليه تدور رحى التنمية والاجتماع والسياسة، ويسعى البعض اليوم، في قلب حدث الجائحة، إلى تغيير المركز إلى رجال الصحة وعلماء المخابر، وذاك برأيي كسراب بقيعة. لن نغادر المربع الأول. وستعود حليمة إلى عادتها القديمة: جشعا وظلما وانحرافا، كما ذهب إلى ذلك د. عبد المولى.

الرأي عندي أن نفكر في إعادة الانتظام برمّته حول الأخلاق والإيطيقا، فهي قلب الدائرة، التي تعطي المعنى للأشياء، وتحسن التوجيه في السياسة كما في الصناعة، في التربية كما في الرياضة، في الزراعة كما في النفس.....الخ.

كما علينا أن نفكر في "مجتمع الفسيلة" القائم على مصفوفةٍ سنامُها قيمتا الأمانة والكرامة. علنا نتجاوز المحنة، ونبني لغد أفضل للبشرية ... بها وإليها.

إدارة الألم زمن الجوائح

ذ. عبدالحق الزموري

من المظاهر المصاحبة للأوبئة بشكل عام، الحجم الواسع (الأفقي والعمودي)الذي تأخذه ظاهرة "**الألم**" فيها، مفهومًا مُجردًا وحالةً فرديةً واجتماعية متعينة.

لا يُنتبَهُ عادة للألم في أوقات الجوائح إلا باعتباره مصدرا للمشاكل عند إدارة الجماعات، أو عند القيام بـ"إحصاء" تداعيات الوباء ومخلفاته.

ظل "الألم" طويلا حبيس هيمنة المقاربة الطبية والسيكولوجية، حتى تحرر في النصف الثاني من القرن العشرين وأصبح موضوعا للدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية والفلسفية.[1]

فكيف نُقاربُ الألم ومراتبه بشكل عام؟ وكيف نُقاربه زمن الجائحة بشكل خاص؟ وما السبيل إلى مقاومة الألم في جائحة كوفيد 19 الحالية؟

- الألم في المبنى والمعنى

ذهبت المعاجم العربية إلى أن الألم هو الوجَعُ،[2] ويدقق بعضهم فيجعله "شدّة الوجع".[3]وهو في تعريف الجمعية العالمية لدراسة الألم" تجربة حسية وعاطفية

---

[1] - أنظر عرضا للفتوحات الأولى في هذا المجال في الجزء الثاني من دراسة د. حسني إبراهيم عبد العظيم، "الألم الإنساني: رؤية مغايرة (2)". موقع معنى. 18 مارس 2019.

https://mana.net/archives/1241

[2] - ابن منظور في لسان العرب، والجوهري في الصحاح، وابن فارس في مقاييس اللغة

[3] - الراغب الاصفهاني مفردات ألفاظ القرآن، والسمين الحلبي في عمدة الحُفّاظ.

بغيضة متعلقة بضرر نسيجي فعلي أو كامن"،[1] قد يصيب الأبدان بشكل فردي أو جماعي، وقد يصيب الأرواح، وهو في حالات الجائحة (مثلما هو الحال) يصيب الأبدان والأرواح معا. يتمكّن من البدن المفرد (حالة التوجّع)، ثم ينتقل سريعا وفي نفس الوقت: بشكل أفقي فيصيب الآخرين (العدوى)، وبشكل عمودي فينخر الجسم والروح الفرديتين سواء. يلاحق ضحيته كالوحش الكاسر، ينقضّ عليها بعد أن يتلذذ بتمكن الوجع من الجسد، فيرحل دون مقدمات، أو يُطيل من ألمه فيُحيله إلى الاضطراب النفسي والسلوكي أو إلى الانتحار أو إلى الصبر والاحتساب. الألم إذا ظاهرة معقدة وذاتية، ولكن الشعور به يكون مختلفا بحسب الشخص والبيئة والدين والثقافة؛[2]وهو أيضا ظاهرة اجتماعية متعددة المتداخلين، وإذا كان الألم "مفهوما طبيا، فإن العذاب هو مفهوم الذات التي تُحسّه".[3]وفي حال الجائحة يزداد تعقيده لتجاور الآلام الفردية وتناميها السريع بما يؤثر ماديا على الألم الفردي من جهة، ولظهور آلام نفسية وروحية جماعية عديدة جرّاء ذلك، يكون تأثيرها هي نفسها على الأفراد والجماعات بما يزيد من الإحساس بشدّته، من جهة أخرى.

قليلة هي الأدبيات العربية التي خُصصت للألم (من خارج المجال الطبي) كتجربة وجودية فلسفية واجتماعية، بالرغم من اختراقه لتاريخ البشرية، ومن حضوره في الكتابات المقدسة.

يعود تاريخ استعمال الكلمة (في العربية) بمعنى الوجع إلى عام 538 م في

[1] -https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D9%85#cite_note-1

[2] - https://www.frm.org/recherches-maladies-neurologiques/douleur/focus-douleur.

[3] - دافيد لوبروطون، تجربة الألم بين التحطيم والانبعاث. تر. فريد الزاهي. المغرب: دار توبقال للنشر، 2017. ص 15. ولوبروطون يفرق بين الألم (douleur) والعذاب (souffrance)، ولكن دون أن يفصل بينهما.

شعر جابر بن مالك الفزاري من قبيلة ذبيان.[1] واستعملت العرب مصطلح **الآلَمُ** (بفتح اللام) للتعبير عن شدة الألم، أي عن مستوى متقدم من الوجع.[2]

وقد ورد جذر أ. ل. م. في القرآن بالصيغة الإسمية "أليم" 72 مرة (68 مرة مرتبطة بالعذاب، 2 بالرجز، 1 بالعقاب، و1 في قوله ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود 102)؛ ولعل المعنى في هذه الآيات يقتصر على درجات الألم وشدّته في الآخرة.

أما التألّم الدنيوي فقد رسم القرآن حقله الدلالي، مستعملا كلمات تدل على مستويْه الحسي والمعنوي، إما بالجمع بينهما كما جاء في الصيغة الفعلية (يأْلَمُ)، ولم ترد إلا مرات ثلاثة في آية واحدة (النساء 104)، أو كما جاء في استعمال مصطلح القرح، بفتح القاف وضمها،(سورة آل عمران، آية 140 و 172)؛[3] أو بتخصيص كلمات يُمكن أن تشير لإحدى الحالتين كاستعماله لمصطلح العذاب[4] أو مصطلحات الحزن والأسف والضيق والكظم للتعبير عن حالات من التألّم النفسي والروحي.

أما الكتاب المقدس، وبالرغم عن كونه "يتكلّم مثلاً عن ألم الولادة في سفر التكوين وعن الألم المرتبط بالمرض في يوحنّا وعن ألم الشهداء في المزامير وسفر أيّوب، إنّما يركّز دائماً على ما يحيط بهذا الألم الجسدي. لأنّ الألم له طابع روحيّ

[1] - معجم الدوحة التاريخي العربي. مادة ألم. (تاريخ الإطلاع 2020/04/17)
/https://www.dohadictionary.org/dictionary

[2] - يُؤَرَّخُ بعام 660 م، في قولة لعلي بن أبي طالب: "وصبرْتُ من كظْم الغيظِ على أمرّ من العَلْقَم، وآلَمَ للقلب من حزِّ الحديد". أنظر معجم الدوحة التاريخي العربي، نفسه.

[3] - وقال الفراء: كأنَّ القَرْحَ الجراحاتُ، وكأن القُرْحَ الألمُ.أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت 338هـ)؛ معاني القرآن. جامعة أم القرى - مكة المرمة، ط1 /1409هـ

[4] - ورد مصطلح العذاب 246 مرة، وجاء في عدد من استعمالاته بعلاقة بالمعاناة في الحياة الدنيا. أنظر على سبيل المثال الآيات 49 و 86 من سورة البقرة.

أيضاً وليس فقط جسدي".[1] ورغم أن علماء اللاهوت المسيحي يغلب عليهم القول إن سبب الألم الأصلي يعود إلى الخطيئة الأولى، فإن القديس يوحنا ذهبي الفم يذهب إلى أن "الله ليس مصدرا للألم، ولا الطبيعة، ولا القضاء والقدر، لكنه هو من عمل إرادتكم الحرة ورغبتكم".[2] وهذا البُعد المزدوج للألم (جسدي – روحي) لا يعني أنهما طبيعتان متمايزتان، بحسب بروطون، فـــ"ثنائية الألم والعذاب لا أساس لها، مثلها في ذلك مثل ثنائية الروح والجسد. فالشرط الإنساني هو أصلا، وبشكل غير قابل للاختزال، شرط جسداني".[3] بل إن بروطون يذهب أبعد من ذلك عندما لا يعترف بوجود ألم سابق عن المعنى.[4] وحتى علماء التشريح ومختصو الألم الذين يؤكدون أن موطن الألم هو الدماغ (استشعارا له أو إحساسا به)،[5] فإنهم يعتقدون بإمكانية التحكم فيه انطلاقا من الدماغ، وذلك عبر الالتجاء إلى "حكمة الجسد والعقل"[6] التي تؤثثها بالضرورة الجغرافيا والتاريخ والثقافة

---

[1] - الخوري شربل شلالا، الألم في الكتاب المقدّس قراءة أدبيّة. مجلّة المنارة 12 أيار 2012
http://charbelchlela.over-blog.com/2017/05/-1.html

[2] - القمص تادرس يعقوب ملطي، القديس يوحنا ذهبي الفم (سيرته، منهجه وأفكاره، كتاباته).الإسكندرية: الكلية الإكليريكية، ط3 / 2007. فصل 51: الألم. موقع الأنبا كنيسة الأنبا تكلاهيمانوت.(تاريخ الإطلاع 2020/04/14)

https://st-takla.org/books/fr-tadros-malaty/chrysostom/pain.html

[3] - دافيد بروطون، نفسه. ص 14.

[4] - Le Breton, D. (2016). Anthropologie de l'expérience de la douleur chronique. Anthropologie et Sociétés, 40 (3), 123–136. https://doi.org/10.7202/1038637ar

[5] - أنظر على سبيل المثال العالم الألماني رويديغر فابيان، رئيس الجمعية الألمانية لعلاج الآلام بغرونيندايش في:

https://www.dw.com/ar/القوة-الذهنية-يمكن-أن-تحد-من-شدة-الألم/a-3799034

[6] - Jon Kabat-Zinn, Full Catastrophe Living Using the Wisdom of Your Body and Mind to Face Stress, Pain, and Illness. United States : Paperbackedition, 2013.

والاجتماع.[1]

الوجعُ والألمُ والآلَمُ (أو العذاب) إذًا حلقاتٌ متداخلة (حالاتٌ) وليست مراتب أو درجات؛ ولأن العذاب هو قساوة الألم، ولأنه لا فكاك من الألم في مسيرة الانسان، فإنه يتحول من إحساس جسماني فردي إلى معنى إجتماعي ثقافي عام في حلقة دائرية يفتح أولها على آخرها. فالإنسان "لم يتوقف طيلة مسيرته التاريخية عن استعمال العذاب واستغلاله وتوظيفه، لعجزه عن التحكم في ردات فعله، وإدارةرغباته ومخاوفه".[2]

- **إدارة الألم زمن الجائحة**

وجوه عدّة يأخذها الألم في الجائحة، منها ما هو توجّع جسدي (عدوى الوباء)؛ ومنها ما هو نفسي فردي وجماعي وأساسه الخوف من الألم الذي يتحول إلى هاجس رُعبٍ اجتماعي تتساوى فيه البشرية بكاملها، فتتناقص الثقة عند الأفراد والمجموعات في إمكانية التعويل على الغير للتخفيف من الألم أو لإنهائه، ما يعود عليهم في شكل رُهابٍ جماعي يُحوّل الأفراد إلى كائنات "متوحشة"؛ ومنها ما هو

---

[1] - Claire marin et nathalie Zaccaï-reyners (sous la direction de), Souffrance et douleur :autour de Paul Ricoeur. Presses Universitaires de France, 2013. « Le soin n'est pas seulement la réponse technique et éthique aux besoins de l'homme qui souffre mais, à travers des expériences, des relations et des pratiques multiples, une dimension constitutive de la vie individuelle et collective. Il fait l'objet aujourd'hui des débats les plus vifs, de la médecine jusqu'à la philosophie morale et politique en passant par les sciences humaines et sociales, la littérature et les arts. »

[2] - Jean Guilhot ; « Réflexions sur le Mal.Problématique d'une éthique universelle humaniste et agnostique ». L'Esprit du temps, « Imaginaire & Inconscient », 2007/1 n° 19 | pages 155 à 167

https://www.cairn.info/revue-imaginaire-et-inconscient-2007-1-page-155.htm

وجودي: مواجهة الموت العاري، "اللامنطقي"، الخالي من كل استعداد ومن كل إمكانية للمرافقة. كل تلك الدوائر (الوجوه) تتحركُ مع بعض في زمن قياسي،فتضغط على الكائن – الفرد، وعلى الفرد – الاجتماعي فتُضاعف إحساسه بالعذاب ... وبالضياع.

أهم المظاهر التي ستُخلّفها "إدارة الألم" زمن الجائحة ثلاثة (وستكون كونية الحجم):

- سيدفع الألم عند عدد من الناس (يزيد وينقص بحسب الثقافات والمجتمعات) إلى تضخم أصابع الشر وتعقّدها لديها،[1] فتسعى إلى تجويد طرائق استغلال الألم وتوظيفه لمزيد الظلم والقهر و"التألّـه"، عبر التحكم في مسالك الوقاية والدواء ....الخ. وما مظاهر فرز قبول المرضى بفيروس كوفيد 19 في المستشفيات في بعض الدول الغربية إلا مثالا بسيطا على ذلك

- وسيصاب عدد كبير من الأفراد باضطرابات نفسية وشروخ سيكولوجية ضخمة (حجما وعمقا) يجعل من إعادة دورة الحياة بعد الجائحة إلى ما كانت عليه قبلها أمرا صعبا، ما سيدفع المجموعات والدول إلى هندسة إجتماعية وثقافية جديدة. بل إن بعض تلك الاضطرابات ستدفع بالأفراد "الفاقدين للأمل" إلى الانتحار الفردي أو الجماعي. ستبقى الندوب النفسية عالقة في الذاكرة الجماعية عقوداً عديدة، وستواصل تلك الذاكرة استدامة الرعب من ألم الجائحة، ألا يرتعش الأوربيون إلى اليوم من ذكرى طاعون القرون الوسطى أو الحمى الإسبانية.

- المظهر الثالث يُترجمه أولئك الذين "تعوّدوا" بشكل من الأشكال على معايشة الألم وإدراجه ضمن إمكانياتهم في التحكم، عبر طرائق متعددة، والذين تدربوا على

---

[1] - نفسه.

ممارسة الصبر والتجلّد قبل حلول الألم (بأنواعه). يذهب الكاتب الإيراني مصطفى ملكيان إلى أن "الشخصية الإنسانية تمظهر في ثلاث ساحات: ساحة العقائد، وساحة العواطف والمشاعر (وهي الساحة التي نستشعر فيها الألم والعذاب)، وساحة الإرادة"،[1] وهذه الساحة الأخيرة هي التي تُعبّر عن قدرة الانسان على المقاومة، بالصبر على التوجّع أولا، وبنشر الأمل تخفيفا على الناس ثانيا، وبانتهاج سلوكات إيجابية (بحسب حجم الإعاقة المادية التي يمثلها الألم) ثالثا، تَقْلِبُ وَصْم الألم (تَوَجُّعًا كان أم عذابا) وتُضفي عليه معنى بنائيا جديدا.

ولعلنا هنا نستشعر الرؤية الأخلاقية القرآنية لظاهرة الألم، باعتبارها تُسبغ عليه المعنى الوجودي من ناحية، وتجعل منه "سلاحا" إيجابيا في يد الانسان يصنع به واقعه الجديد ويمارس به مسؤوليته.

الحقل الدلالي للألم في القرآن يحوّل المعاناة إلى "نعمة"، فرصة للإنسان لتجاوز بهيميته وليرتقي في طريق المعرفة والكشف. تُحددُ علامات ذلك الحقل آيات 140 – 143 من سورة آل عمران ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (...) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (*) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. نحن هنا أمام قاعدة موضوعية عامة: حصول الألم والمحن (القَرحُ) للناس أجمعين، مؤمنهم وكافرهم، أي أن الألم لازمة الطبيعة البشرية، كالحر والبرد، والخير والشر ...الخ. وتفتحُ تلك القاعدة على مواجهة أعقد مستوى للألم: الموت العاري، بروحية مختلفة ﴿فقد رأيتموه [أي الموت] وأنتم تنظرون﴾. والموت العاري زمن الجوائح أخطر مولّد للرعب الجماعي، لأنك تواجه صورته وحدك، لا يمكنك أن تُعوّل على أحد يرافقك قبله أو عنده أو بعده، خوف تعرف

[1] - مصطفى ملكيان، التدين العقلاني. بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين، 2005. ص 99.

أن غيرك من حولك يواجهه أيضا، وبنفس الطريقة، بقطع النظر عن طبيعة الآلام. هو كُرةُ ثلجٍ تتدحرج وتتعاظم داخل دوامة القلق.

أستحضر هنا كتابا "طريفا" في مقاربة الألم، تقوم على تثمين المنحة الإلهية للإحساس بالألم، وتحويل تلك المنحة إلى طرائق في علاج عدد من الأمراض المستعصية كالجُذام والسرطان وغيرها، كتاب الطبيب الأمريكي بول براند بعنوان "*THE GIFT NOBODY WANTS*" (1993)، الذي تُرجم أخيرا إلى العربية تحت عنوان " هِبة الألم، لماذا نُعذَّب وما موقفنا من ذلك".[1] يذهب الطبيب – الكاتب إلى أن أجمل ما في الألم أنه يُنبئُك فورا إن كنت تؤذي نفسك، ويصل إلى نتيجة –انطلاقا من معاينة إكلينيكية طويلة لمرضى مختلفين – أن "الخوف أقوى معزز للألم، إذا كان الشخص المصاب خائفًا فإن العضلات تتوتر وتتقلص مما يزيد الضغط على الأعصاب المتضررة ويسبب مزيدًا من الألم، يتغير ضغط الدم وتتوسع الأوعية أيضًا، وهذا ما يجعل الشخص المرعوب شاحبًا أو محمرًا"؛ لذلك فهو يركّز في نظامه العلاجي على التقليص من مستوى الخوف إلى أدنى مستوياته، والاستعانة بالمحيط القريب من المريض.

وعند التأمل في الحقول الدلالية التي يرسمها القرآن لدائرة الألم – العذاب وطرق مجابهته، نلاحظ تركيزا على مجابهة ذلك الخوف، بما يساعد على بث جرعات من الأمل المتبوع بالثقة والقدرة على التجاوز، وتدفع بالمتألم عبر نسيج الصبر والتجلّد والاحتساب الإيجابي إلى تحويل الوجيعة إلى "هبة" وفرصة لبلوغ الأهداف. يتحول الألم إلى قرار حرّ.

الرؤية الأخلاقية للألم تقوم على الفصل بين الألم وبين الخوف من الألم،

---

[1] - د.بول براند وفيليب يانسي، هِبة الألم، لماذا نُعذّب وما موقفنا من ذلك. ترجمة آراك الشوشان. السعودية: مركز تكوين للدراسات والأبحاث، 2019.

فتعمل على تفكيك الثاني بموضوعية وعلمية، وبناء قاعدة الصبر والاحتساب لمواجهة الأول، وبذلك يُحوّل وجهته من الانهيار النفسي ثم الجسدي إلى فعل إيجابي وإرادةُ تغييرٍ.

وهذه الرؤية هي ما نُطلق عليه بـ"حُسن إدارة الألم" زمن الجوائح، ومنها جائحة الكورونا.

وتقوم هذه الإدارة على مصادرة وثلاث حالات:

فأما المقدّمة فهي الاقتناع بأن العذابَ والمشقّة والحزن هنا مُعوْلَمٌ، وبالتالي فإن الخروج منه لا يمكن أن يكون فرديا أو أنانيًا، بل هو "محل الاشتراك الكوني"، أي أن يتعاون الجميع على المشاركة في إيجاده والانتفاع به، أن تفكّر بأن خلاصك رهين خلاص البشرية جمعاء.

وأما الحالات الثلاثة فهي بالترتيب الذي يؤدي أحدها للآخر:

* الاعتراف بأن ما يحصل للإنسانية من محنة إنما هو من فعلها واختياراتها "التدميرية" للطبيعة وللإنسان معًا، وأن طريق "التألّه" الذي اختاره، أخلاقا وسياسةً واقتصادًا واجتماعًا ... الخ، لا يمكن أن يؤدي إلا لما نحن فيه. والإقرار بعدل الله في قوله ﴿وَمَا أَصَابَكَ من مُصيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْديكُمْ﴾، وقوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وأن هذا ينطبق على كل مصيبة عظيمها ودقيقها. التخلي عن التأله تغييرٌ للبوصلة، وإقرار بضرورة تصحيح المعنى.

* إذا اختارت البشرية هذا المسلك، علمتْ إن أول مراتب الحل الصبرُ اختيارًا لا اضطرارًا، وإنْ بَلَغَ الجَزَعُ غايته، فقد قال بعض الحكماء: "من لم يصبرْ صبرَ الكرام، سلا سلْوَ البهائم" لأن المحنة – كما ذهبنا إليه أعلاه – لازمةُ الطبيعة البشرية، وثاني المراتب أن تجتهد نُخبة الجماعات في السعي لرسم معالم الخلاص، ولا يكون

ذاك طبيًا فقط أو ماديا أو سياسيا ... فقط، بل كل ذلك معا، إيطيقيًا وماديا وعلميا وإداريًا ... الخ. إذا انتهج الإنسان ذلك الطريق، وتعاون فيه مع الآخرين، سلَكَ سبيل الرحمة الإلهية، وحوّل المِحْنَة إلى مِنْحَة، هِبَةُ الطبيعة إليه كما غَضَبُـها. يقول ابن القيم في الرحمة الحقيقية: "مما ينبغي أن يُعلَمَ أن الرحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كَرِهَتْها نفسُه وشقّتْ عليها. هذه هي الرحمة الحقيقية؛ فَأَرْحَمُ الناس بك مَنْ شقّ عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك".[1]

أما إذا أصر الإنسان على محاولة تجيير الجائحة وعذاباتها خدمةً لمصالحه الأنانية الشريرة، وواصل طريق "التأله" المرضي معتبرا ما يحصل مجرد نتيجة سباق نحو السيطرة، فإن الجائحة ستزداد تعقّدًا وستفتحُ على "جوائح" أخرى أشد وأعظم. تلك سُنّة الله في خلقه.

* طريق الرحمة ذاك تهيئة كونية لصلاح كبير يعقب المحن. تماما كما أن أخصب الأرض هي تلك التي غمرتها حمم البراكين. تغيير معنى الأشياء، وأخْلَقَةُ الفعل الإنساني وتصوراته،وإضفاء المَرْحَمَة على الروابط التي تجمَعُ مختلف المخلوقات الكونية، هو الكفيل بتغيير إدراك الناس للألم وتعاملهم معه، وتحويل الإدراك إلى قَبَسٍ من الفعل الإيجابي، اهتداءً للخلاص وتحقيقا للرفاه.

يُطلق إدغار موران في ختام إحدى محاضراته حول جائحة الكورونا نداء للبشرية :

" *Vivre bien c'est faire ce que nous croyons bon et nécessaire* ... .[2]"

فهل من مدّكر !.

---

[1] - المجموع القيّم من كلام ابن القيّم، في الدعوة والتربية وأعمال القلوب. جمع وإعداد منصور بن محمد المقرن. السعودية: دار طيبة للنشر والتوزيع، 2005. ص 824

[2] - https://www.youtube.com/watch?v=qERE3Yg265M&feature=youtu.be

أي تربية لما بعد الكورونا؟

د.مصدق الجليدي

أستاذ محاضر، مركز البحوث والدراسات في
حوار الحضارات والأديان المقارنة بتونس

التربية التقليدية، التربية النشيطة، التربية الحوارية، تربية الحداثة والبنائية، تربية ما بعد الحداثة، كفايات القرن الواحد والعشرين، وأخيرا تربية ما بعد الكورونا .

وهنالك "التربيات على " éducations à "، على القيم، على البيئة، على الصورة، على المواطنة، على الحس النقدي، على العيش المشترك...الخ .

وهنالك التربية انطلاقا من وضعية مشكل، وقبلها بيداغوجيا المشروع، والتربية المؤسسية، والتربية الوظيفية، والتربية الفارقية، والتربية الإفرادية، والتعليم المستجيب enseignement répondant، ثم الفصل أو القسم المعكوس classe inversée ، واستخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصال في التعليم...les TIC الخ .

الآن نحن إزاء وضعية- مشكل حقيقية وليست تعليمية اصطناعية. وهي لا تمثل فقط في مشكلة الانقطاع الإجباري عن الدروس الحضورية، وحرمان التلاميذ من استكمال مقرراتهم الدراسية واكتساب الكفايات التعليمية والتربوية المنتظرة لهم، بل مشكلة أكبر من هذه بكثير. وهي كيف نكون مؤهلين للبقاء على قيد الحياة وفي صحة جيدة في مواجهة الأوبئة المتكاثرة التي تجتاح عالما، نوعا من بعد نوع وطفرة من بعد طفرة. وكيف نخرج من حروبنا مع هذه الجيوش المجهرية بأقل

الأضرار الصحية والاقتصادية والنفسية والتنظيمية والتسييرية والأمنية والتواصلية والتربوية وغيرها؟.

أي ما هي الكفايات التي يجب أن نربي عليها النشء والشباب في المستقبل حتى يضطلعوا بمهمتين أساسيتين :

أولا: قيادة الدولة والمؤسسات العمومية والخاصة قيادة حكيمة وناجعة.

ثانيا :التكيف السريع مع الطوارئ والأزمات والجوائح والاستجابة المحكمة والدقيقة والناجعة لها، وتطويقها في أسرع وقت وبأقل التكاليف والخسائر البشرية والمادية .

ثمة صنفان كبيران من الغايات التربوية :

غايات قيمية، مثل الأخلاق، ومثل القيم الروحية والقيم المهنية، والقيم الجمالية، وغيرها...

غايات-وسائل أو غايات- كفايات. وهي كفايات لامادية، مثل التفكير العقلاني والكفايات المنهجية بأنواعها، وكفايات تقنية، مثل التحكم في التكنولوجيات الرقمية الحديثة .

تربية ما بعد الكورونا تتطلب رسم هذين النوعين من الغايات.

أولا- الغايات القيمية:

لقد كشفت أزمة الكورونا الحالية عن أمر مهم جدا. وهو دور الثقافة الأصيلة والقيم في إحكام مواجهة الوباء وسرعة الاستجابة لمقتضيات هذه المواجهة،

وهذان أمران يتلخصان في قيمة الانضباط. في الصين، التي تعدّ أبرز مثال على النجاح المتميز في مواجهة الوباء ودحره، وإن بعد تهاون وسوء تقدير في البداية، برز انضباط منقطع النظير لدى كل فئات الشعب الصيني الذي يبلغ مليارا ونصف من الأفراد. والانضباط، في ما وراء نظام رقابة السلطة المشدَّدة بمساعدة الخلايا الحزبية المحلية التي أنشئت منذ العهد الماوي، يشكل (الانضباط) قيمة مستمدة مباشرة من الثقافة الكونفوشوسية، التي استبطن الصينيون من خلالها قيم الطاعة والجدية والانضباط والدقة والتضحية من أجل صالح المجموعة. بينما فشلت الفضاءات التي ترعرعت فيها الحداثة وقيمها الفردانية والمادية والوضعانية في استجابة سريعة وجدية ومنضبطة لخطر الكورونا. كانت ألمانيا استثناء نسبيا في الفضاء الأوروبي الغربي.. وهذا عائد جزئيا للإيمان بقيمة الانضباط والدقة أيضا. وكذلك ربما لقيمة الرصانة المستبطنة من الكاثوليكية الوقورة المترسخة في المجتمع الألماني. لقد زرت ألمانيا منذ ثلاث سنوات، ولم أشاهد هناك أناسا يضحكون ببلاهة أبدا. وأعرف أن فيلسوف النقد والأنطروبولوجيا والتربية الألماني امانويل كانط كان قد أكد بوضوح في تأملاته التربوية على قيمة الانضباط، التي منحها أهمية تفوق أهمية اكتساب المعرفة ذاتها، لأنه حسب قوله من فاته نصيب من المعرفة، فإنه بإمكانه تداركه في أي وقت، ولكن من فاته اكتساب خلق الانضباط، فيصعب عليه لاحقا استبطانه حقا .

ونحن في مجتمعاتنا الإسلامية تتوفر ثقافتنا على كنز من القيم مساعد على التمتع بحياة طيبة في المجموعة .مثل قيم الأخوة، والجماعة، والتضامن، والكرم، والإيثار،

والتطهر، والإيمان والصبر والاحتساب والتوكل والإخلاص والعلم والإتقان، وقيم الحذر والأخذ بالأحوط. وهنالك المقاصد الشرعية، ومن بينها حفظ النفس. وكلها قيم يحتاجها الأفراد والمجموعة في أوقات الضيق خاصة. كل هذه القيم يجب مواصلة التنشئة الاجتماعية والتربية المدرسية عليها، بالمثال والقدوة والممارسة والتمرين والتمرن خاصة. ومن السخافة والحمق التفريط فيها تحت عناوين الحداثة والتقدم والفرد (الفردانية في الحقيقة).

ولكن توجد في تراثنا أيضا عوائق ثقافية يجب التنبه لها ومعالجتها مثل عقيدة الجبر والتواكل وقلة الحذر، بدعوى أنه " لا يغني حذر من قدر". ولذا يجب اعتماد مقاربة التنوير الديني في التربية الإسلامية وحتى بشكل عابر للمواد، وبطريقة مناسبة. مثل استخراج بعض العوائق الثقافية وجعلها أهدافا- عوائق -objectifs obstacles، في بعض الدروس العلمية، حتى لا ينشأ المتعلم وهو حامل لوَعْيَيْن متضاربين ومتعايشين بشكل سلبي في مرجعيته الذهنية الواحدة، فتكون الغلبة للوعي الديني الساذج عند أول اختبار، لتفوّق بنية الاعتقادات المتصلبة على البنية المنطقية الرياضية العلمية التي تبنى بناء ذاتيا، ولا تتلقى بصفة سلبية .

إلى جانب القيم الثقافية الأصيلة، توجد طائفة أخرى من القيم الضرورية لحسن التعامل مع آفات وجوائح تجتاح الكوكب بأسره. من أبرزها قيم الهوية الأرضية. بصفتنا ننتمي لنفس النوع الإنساني، ونواجه نفس المصير العالمي في خطوطه العريضة، وأحيانا حتى في أدق تفاصيله. هنا على الهويات الثقافية المخصوصة أن تحلى بالانفتاح الإنساني والوظيفي الحيوي الذي لا مفر منه. فتكون القيم الإنسانية،

مثل الرحمة والتراحم والتضامن والتعاون، في قلب منظومة القيم الثقافية الخاصة بكل أمة وبكل شعب، مهما كانت الديانة والثقافة والعرق.

كما يجب إدراج التربية على الصحة الوقائية في المناهج التربوية، وإدخال سلوكات الحذر الصحي في المدارس، مع الانتباه إلى عدم المبالغة حتى لا تنمو لدى بعض النفسيات الهشة حالات هَوَسِيَّة، وحتى لا يسمح بفقدان الأفراد لمناعتهم وقدرتهم الجسدية الذاتية على الدفاع ضد الكائنات المجهرية الضارة من جراثيم وفيروسات. وبالتوازي مع هذه التربية الوقائية للمتعلمين، يجب تأهيل كل المؤسسات التربوية بمعيار الصحة الوقائية، الذي هو مؤشر من مؤشرات الجودة التربوية الشاملة. وتدريب الأعوان على الالتزام بهذا المعيار دون أدنى تهاون .

ثانيا- الغايات\الكفايات:

أعود مرة أخرى لنفس المثال الصيني. لم تنجح الصين في تحدي مواجهة الوباء بالأخلاق الكونفوشوسية وحدها، ولا بالحرص الصارم على الانضباط وحده، بل نجحت في ذلك أيضا بالتقدم العلمي والتقني. وخاصة علوم المعلوماتية الصناعية والأوتوماتيزم والروبوتيك والسيبارنيتيقا، فضلا عن البيوكيمياء والعلوم الطبيعية والطبية والصيدلة .

لذا يجب أن نصمم مناهج لتربية ما بعد الكورونا تتضمن تعلمات عصرية بالكامل، وأن نتجاوز المقررات التي عفا عليها الزمن. هذا من حيث المضامين، أما من حيث الوسائل، فيجب الاستعداد تدريجيا للتخلي عن الشكل المدرسي التقليدي وتعويضه بشكل ملائم لعصر الديجيتال، حيث استخدام التكنولوجيات الرقمية

والتعليم عن بعد بوسائل الاتصال الرقمي، دون التخلي عن الوساطة التيسيرية للمعلم والتفاعل المعرفي الاجتماعي الفوري أو المؤجل، لتجنب إعاقة ظهور سيرورات النأي بالذات المتعلمة عن الأنوية، وتنشيط سيرورات مابينية تؤدي بدورها إلى تنشيط سيرورات ضمن ذاتية مساعدة على التغلب على التمركز حول الذات، وبالتالي إمكانية الاستفادة من الأتراب الأكثر تمكنا من المهمات المعرفية .

يوجد جانب آخر في تحديات أزمة الكورونا يخص النظام الديمقراطي بدرجة أولى. وله انعكاس أيضا على الشكل المدرسي ودمقرطة العملية التربوية والتفاعلات التعليمية- التعلمية. وهو يخص نمط العلاقة بين السلطة أو الدولة والمجتمع المدني. فميزة الديمقراطية كونها في مثل هذه الحالات الوبائية كونها "تخاف على الشعب" ولا تُخوّف الشعب، كما يحدث في الأنظمة الشمولية الاستبدادية، وفي مثل هذه الأزمات تنعكس العلاقة لتكون علاقة تعاضد وتعاون وتشاركية، عوضا عن علاقة الضدية والمقاومة التي يبديها المجتمع المدني لخيارات وبرامج السلطة. الكلمة المفتاح هنا هي التشاركية والتعاون، بما يتطلب الانفتاح والتنسيق والتثمين المتبادل للمقترحات والإجراءات. في المؤسسة التربوية توجد أيضا سلطة وتوجد قوى مقاومة. السلطة تمثلها الإدارة، وقد تكون المقاومة من المعلمين. ولكن السلطة أيضا هي المعلمون أنفسهم إزاء المتعلمين، الذين يظهرون أحيانا مقاومة في تعلم الجديد أو في الانضباط للميثاق التربوي. أي مقاومة العقد الديداكتيكي (الخاص بالمعرفة) والعقد البيداغوجي (الخاص بالظروف التواصلية النفس- اجتماعية للوضعية التربوية). من شأن تطبيق بيداغوجيا مؤسسية، حيث توزع أدوار المسؤولية

ديمقراطيا بين التلاميذ، بتأييد وتيسير من المعلم، أن تساعد على إحلال شكل مدرسي ديمقراطي تشاركي أفقيا (بين التلاميذ أنفسهم) وعموديا (مع السلطة: المعلم والإدارة) حيث يكون هنالك اعتراف ومأسسة للأدوار التي يتقلدها التلاميذ في "دولتهم "أو "مؤسستهم" (الفصل، ومحيطه المدرسي المشترك مع فصول أخرى). بيداغوجيا المشروع تقحم أيضا بشكل عقلاني ومقبول وتعاقدي كلا من الإدارة والمعلم والتلاميذ والمحيط الاجتماعي والصناعي والاقتصادي والبلدي، والأمني أحيانا، في تشاركية متعددة الأطراف، وغنية بالتعلمات وب"التربيات على". كل هذا إذا تكرر وتنوع وتم التداول بشكل مقبول على المسؤوليات فيه، يهيئ الأفراد لإدارة أزمات لاحقة وهم متسلحون بالذهنية والقيم والمهارات القيادية والتنظيمية واللوجستية المطلوبة. ولا يبق إلا تطبيق تمرينات بسيطة للتدرب على الحالات الجديدة والتكيف معها .

تعديل آخر يجب أن يجرى على الشكل المدرسي، ولكنه من طبيعة فنية هذه المرة، حتى وإن كانت له انعكاسات بيداغوجية إيجابية بالضرورة، وهو وجوب التخلي عن هندسة الحشر القطيعي للمتعلمين، والتخفيف من الاكتظاظ في الفصول، بحيث يكون هنالك كسب تربوي وكسب صحي في الآن نفسه .

في الحقيقة، لا يكون الاستعداد لما بعد الكورونا، أي لكورونا أخرى محتملة، في ذات صيغتها الحالية، أو في طور مستجد، أو لأي آفة ووباء المحتمل ظهورهما في المستقبل، لا يكون هذا الاستعداد بتدابير مادية وتربوية جديدة بالكامل. بل بتثمين الرصيد الذي ثبتت قيمته من القيم ومن الكفايات والمهارات والتقنيات، وبالتربية

على الاستجابة السريعة والمحكمة لكل طارئ. أي تحرير الطاقات عوضا عن كبحها بهواجس أمنوية أو اقتصادوية أو قانونجية، وبعادات مؤسسية متكلسة .

أضرب مثالا على ذلك في تونس، هو منع الشباب من تصميم طائرات وآليات وابتكارات مختلفة تحت وطأة الهاجس الأمني، وبضغوطات مانعة من ممارسة السيادة الوطنية في مجال الحريات الأكاديمية والابتكار التكنولوجي والسبق العلمي.

الكون العابد شريك مكافئ للإنسان في الحياة

د. سعيد شبار

أستاذ التعليم العالي في الفكر الإسلامي والحضارة،
جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب

مما تداوله الكثيرون تزامنا مع لزوم الناس في العالم لبيوتهم، استجابة للحجر الصحي وإعلان حالات الطوارئ؛ أنهم فسحوا بذلك المجال للطبيعة والبيئة أن تأخذا حقهما من النفس والاستراحة. و أن تنعما بنظافة استثنائية في الماء والهواء والتراب؛ وأن تنعم بذلك أيضا المخلوقات والكائنات الأخرى، حية و"جامدة". والتي كانت عرضة لعدوان الإنسان السافر عليها، تلبية لأطماعه واستجابة لجشعه في الاغتناء والتملك. حيث لاحظ المتتبعون أن نسبة التلوث قد تراجعت كثيرا، وأن الصفاء والنقاء أصبح لائحا على صفحة المياه وفي الأجواء. و أن مخلوقات بحرية وبرية وجوية، كانت محتجبة خوفا من التلوث أو من البطش، بدأت بالظهور والبروز للاستمتاع بجمال الحياة ولو قليلا.

والواقع أن ما يحدث اليوم هو فرصة لمراجعات كثيرة، ذكرنا منها "استعادة الإنسان لإنسانيته"، ونذكر منها ضرورة استعادته لنظرته الإيجابية إلى الكون والمخلوقات، باعتبارها شريكا حقيقيا مكافئا له في الحياة والوجود، وفي الاستجابة لأمر الله خالقها تعبدا طوعيا، كما يستجيب هو لله خالقه تعبدا كدحيا.

إن آية التكليف المتجلية في قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب، 72]، تقرر حمل الإنسان للأمانة بعد أن أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها؛ وتطرح أكثر من سؤال بخصوص هذا التكليف الخطير، الذي ناءت بحمله تلك العوالم الكونية الضخمة، وتحمله هذا الكائن على ما به من وهن وضعف. فما هي هذه الأمانة؟ وما سر إعراض وإشفاق السماوات والأرض والجبال عن حملها، واختيارها الهداية الطوعية بدل الكدحية؟ وما معنى إباءها وإشفاقها في ذلك؟ وهل ذلك حقيقة أم مجاز؟.

ذهب أغلب المفسرين بهذا الصدد إلى أن الآية في تقريرها عرض الأمانة على غير العاقل، إنما ذلك مجرد مجاز وضرب مثل على ثِقلها والقوة اللازمة في حملها. وهذا كقوله تعالى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر، 21]". وكما تقول العرب: عرضت الحمل على البعير فأباه. والمراد: قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه."

وأما الأمانة ذاتها فهناك مُختَصِر في بيانها، مثلما ذكر الإمام الرازي أنها: "التكليف". وهناك مُتوسط مثلما ذكر الطبري أنها: "الإيمان والفرائض التي افترضها الله على عباده". وذكر القرطبي أنها: "تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور". وبخصوص إباء السماوات والأرض حمل تلك الأمانة، نجد للإمام الرازي تفسيرا جميلا في قوله تعالى: (فأبين أن يحملنها). حيث يذهب إلى

أنه "لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى: (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) [الحجر، 31]، من وجهين: أحدهما أن السجود هناك كان فرضا، وههنا الأمانة كانت عرضا. وثانيهما أن الإباء كان هناك استكبارا، وههنا استصغارا. استصغرن أنفسن بدليل قوله (وأشفقن منها)".وإن مما يوسع إدراك ووعي الإنسان بمعنى التكليف، استحضارُه للكائنات حوله باعتبارها مكلفة كذلك، وإن اختلفت طبيعة التكليف بينه وبينها. فإن كان تكليفه سعيا وكدحا وجِدا واجتهادا، لقوله تعالى:(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)[النجم، 39-40] وقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)[الانشقاق، آية 6]، فإن تكليفها تكليف طوعي، وهدايتها هداية طوعية، لقوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت، آية 11]فالإنسان إذن مُشْتَرِكٌ في العبادة مع الكون والكائنات، تسبيحا وسجودا وخشية، وذلك ما تقرره آياتٍ كثيرات نذكر منها قوله تعالى:-(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[الإسراء، آية 44] .(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [الحج، آية 18]-(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [النحل، آية 49]-(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) [النور، آية 41] -(وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة، آية 74]ذكر الرازي في قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت، آية 11] أن "المقصود من هذا القول إظهار كمال القدرة، أي: ائتيا شئتما أم أبيتما (...) طائعين أو مكرهين" وقوله (أتينا طائعين) "بيان لامتثالهما التام لأمره". وقيل إن عبادة الكائنات إنما هو ذل وخضوع، وقيل سجودها وتسبيحها حقيقي يليق بها، ولذلك قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم). وقد ثبت أن جميع الكائنات تصدر أصواتا ولكننا لا نسمعها ولا نعلمها، فقد قيل في شأن داود عليه السلام: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) [سبأ،10]. ومعنى أَوِّبِي: سبحي معه عند معظم المفسرين. وقيل في شأن سليمان:(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)[النحل: 17-22].فالله تعالى أسمع سليمان صوت النملة وهي تُحَذِّرُ النمل، مما استوجب منه شكر هذه النعمة، كما أن حديثه مع الهدهد كان حول قضية تعبدية خطيرة، وهي إطلاع

الهدهد له على ما كان عليه أهل سبأ، في عبادتهم للشمس من دون الله، مما استوجب تدخل سليمان عليه السلام.

إن التعامل مع الكون باعتباره شريكا في التكليف والعبادة، يستوجب الدخول معه في علاقة سلمية لا عدائية؛ ويعزز مرة أخرى ما ذكرناه من ضرورة نسج علاقة صداقة وتفاعل إيجابي معه. على خلاف تيارات النزوع المادي الجشع، نحو الاستغلال المفرط لموارد الطبيعة، والضرر الذي يسببه لمخلوقاتها؛ حينما تراها مصدرا للأرباح والإشباع الاستهلاكي، والتفوق الصناعي والإنتاجي؛ وليس مجالا للاستخلاف والإعمار، والارتفاق الحسن بها وبكائناتها.

وتذكر لنا كتب الحديث والسيرة أثارا رائعة في تفاعل النبي صلى الله عليه وسلم مع الجمادات، بل ومخاطبته لها مخاطبة الأحياء. فعن جابر بن عبد الله: «كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ» (صحيح البخاري) .وقال النبي سلى الله عليه وسلم في جبل أُحد وقد كانت هزيمة المسلمين عليه بعد نصرهم ببدر: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» (صحيح البخاري). وتذكر رواية أخرى عن أنس بن مالك أنه قال: " صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، قَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ" (صحيح البخاري).

إن المنظور الاستخلافي في الكون، والتسخيري للكائنات، ومشاركتها في العبودية لله، يوجب على الإنسان تدينا، الارتفاق بها والإحسان الكبير في التعامل معها، والتدبير الأمثل في استخدامها، ونسج علاقة صداقة وبر وتعاون معها. وسنن الدين الشرعية متماهية مع سنن الكون القدرية، وسنن الاجتماع والعمران والحضارة تَبَعٌ لهما في ذلك. كما أن نظام اشتغال هذه السنن واحد مطرد في الجميع، في آيات النص وفي آيات الأنفس وفي آيات الآفاق، دال على وحدة الخالق تعالى في خلقه، وعلى وحدة المخلوقات رغم تنوعها وتعددها. كما أن تحرير الإنسان بالتوحيد من العبودية للمخلوقات التي كان يعتقد بقهرها له، لا يعني أنه هو القاهر لها، بل شريك لها في مهام الاستخلاف والعمران.

ولهذا نجد الدين يرفض بشكل جازم، كل مظاهر الإسراف والتبذير والإخلال بالتوازن الطبيعي في الكون ومع الكائنات. نقرأ في ذلك مثلا قوله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأعراف،31]؛ (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) [الإسراء،27]. وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالصحابي سعد وهو يتوضأ. فقال: («مَا هَذَا السَّرَفُ» فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ، قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ») (سنن ابن ماجة).

يلحق بهذا أيضا أن الإسلام دين الجمال كما هو دين الجلال. فإذا كانت عظمة الخلق والنظام في المخلوقات دالة على جلال الخالق، فإن التناسق والانسجام والتنوع والاختلاف بين هذه المخلوقات دال على الجمال الملازم لذلك الجلال. وفي

الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» (صحيح مسلم).

بل ويحرص الدين على جعل النظافة من الإيمان، وعلى جعل إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان كذلك، دفعا لاستصغاره أو توهم حقارته وتفاهته، ففي الحديث «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ -شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» (صحيح مسلم). فهو عمل من الأعمال، وليس في العمل تافه أو حقير مادام يترتب عليه ثواب أو عقاب، ونحن نقرأ قوله تعالى:(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة، 6 ـ 7]. وذلك يعني في سياقنا: وإن يكن العمل بمقدار الذرة فهو معتبر دينا. فكيف إذا كان بحجم تنظيف المحيط والبيئة، والإسهام في تطهير الماء والهواء، الذين يحيا بهما الكون وتحيا بهما الكائنات.

يحرص الدين كذلك على الإحسان إلى الكائنات والمخلوقات والارتفاق بها إلى درجة جعلها "أمما" على اختلاف أجناسها وأنواعها، مثل "أمة" الناس: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (سورة الأنعام 38). وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه»، (رواه مسلم). ولكثرة وصيته عليه السلام بالعناية والارتفاق بالمخلوقات الأخرى، سأله الصحابة

مرة فقالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا، قال: «في كل كبد رطبة أجر»، (متفق عليه).

فهل يا ترى يؤثر تخلف المسلمين عن تعاليم دينهم على جمال وجلال هذا الدين؟

أبدا.. فجمال الدين وجلاله من المطلق الذي لا يتأثر بالزمان ولا بالمكان، وإنما يتأثر واقع المسلمين وواقع البشرية، حينما تتنكب عن سُبل الهداية الحقة، وتتبع سبل الأهواء والإغواء والطغيان. ومنظومة القيم في الدين، هي للناس جميعا هي من أجل تحصيل سعادتهم الدنيوية والأخروية، ومن أجل رفع العنت والشقاء عليهم، فإن أهملها أناس حملها آخرون، وتلك سنة التداول التي ينبغي أن ينتبه إليها المسلمون قبل غيرهم.

الصحبة وآفاق الإنسان فيما بعد الوباء

د. پول هيك

أستاذ الدراسات الإسلامية في قسم اللاهوت في جامعة

جورج تاون، الولايات المتحدة الأمريكية.

يحتفل المسيحيون اليوم عبر العالم بعيد الفصح لكن دور العبادة أغلقت أبوابها منذ زمن. لذلك، عوضاً عن الذهاب الى الكنيسة، قمت بجولة في المدينة على دراجتي. المدينة هي واشنطن عاصمة الوطن. وعند المرور بمعالم المدينة اندهشت بها كأنني لم اطلّع عليها من قبل. حيث مررت بالبيت الأبيض أقوى كيان تنفيذي في العالم. ثم مجلس النواب ومجلس الشيوخ أقوى المجالس التشريعية في العالم. ثم أردفت بمقرّ البنك الدولي وكذلك مقرّ صندوق النقد الدولي أقوى المؤسسات الدولية في العالم. أغلقت مراكز القوة هذه كلها أبوابها ليحيط بها السكون بل العجز نتيجة للوباء الذي سببه شيء أصغر من الجرثومة لا يستطيع القراءة ولا الكتابة ولا النطق بكلمة واحدة إلا أنه قد شلّ القوى الدنيوية كلها.

يسخر هذا الوباء الذي قد امتد الى أنحاء العالم كلها من الخصامات الفكرية التي تشغل عقول العلماء والمفكرين والتي تقسّم الإنسانية الى معسكرات اقتصادية ودينية وسياسية. وقد زادنا الوباء شعورا بهذا التقسيم. تكثر الاتهامات بخصوص المسؤولية عن تفشي الوباء وتنصبغ أحيانا بصبغة قومية وعنصرية. هكذا ليغلب الاغترار علينا في وقت الآلام المشتركة.

فهل نحن أعداء بعضنا البعض؟ أم أن هنالك عدوا واحدا نواجهه جميعا؟

لا يستطيع أحد أن يتنبأ بعواقب هذه الأزمة بدقة كاملة. إلا أن التاريخ رغم ذلك يثبت أن الأوبئة تغير العالم،ولا محيد لنا عن ذلك. وفي إطار النظر فيما نحن مقبلون عليه أذكر نقطتين تجدر الإشارة إليهما.

تخص الأولى منها القوة الدنيوية. من يقرأ "المقدمة" لابن خلدون أو "مدينة الله" للقديس أغسطينوس يدرك أن القوة الدنيوية لا غنى عنها في حكم المجتمع إلا أنها تشكّل أيضا تهديدا لصلاح الإنسانية. والسبب في ذلك أن وجود القوة الدنيوية يترك أثرا على وجدان الإنسان، الأمر الذي يشعره بأن التغلب هو مقياس الإنسانية. لذا نتوهم أن التغلب الذي يُؤَسَّس عليه حكم المجتمع هو الذي ينبغي أن نقتدي بها حتى نحوز نصيبا فيه بصورة أو بأخرى.قد لا نلاحظ هذه الظاهرة على مستوى الفرد ولكنها تمثل نزعة عامة في الإنسانية. تظهر رغبة التغلب فيما بين شعوب العالم إزاء المصالح الاقتصادية والدينية والسياسية. لذا، لا يبتعد عن الحق من يقول إن الإنسانية تتبع دواعي التكاثر والتفاخر فيما تنزع إليه نزعة عامة. وتظهر كذلك رغبة التغلب في التفاعل مع البيئة ومواردها، ما يفتح الباب مشرعا في الاعتداء عليها، الأمر الذي لا محيد من أن يسبب ظهور الأوبئة وتفشيها.

لا أظن أن هذا الوباء سيسفر عن القضاء على الرأسمالية العالمية، بما فيها حب الاستملاك وحب الاستهلاك فهذان الحبان يتبعان رغبة التغلب.كما يشهد التاريخ بقاء هذه النزعة مهما يقع من ثورات وانقلابات.

والآن آتي إلى النقطة الثانية. "ما لا يُدرك كله لا يُترك جله". فمن ناحية لن يغيرنا الوباء تغييرا جذريا فلن ندرك ثمرات التجربة كلها. ومن ناحية أخرى لا بد من جني بعضها. هكذا نرتجي تعديلا نسبيا فقط قد يؤدي بنا إلى تحسين التعامل فيما بين بعضنا البعض، وذلك لحفظ أنفسنا في المستقبل من انتقام البيئة التي تردّ على ما يأتيها الإنسان من تهديد ردًا يُعجز قوته الدنيوية كافة.

في هذا السياق لا بد من الالتفات إلى حكمة يُجمع عليها جميع الحكماء، فلا بد من تسليط الضوء عليها : لعلاج النزعة السلبية لا بد من تعزيز النزعة المضادة ولإضعاف الرذيلة لا بد من تقوية الفضيلة. على سبيل المثال، تدفع أفعال الإكرام نزعة الطمع والجشع، كذلك تدفع النشاطات العلمية هجومات الجهل على الإنسان.

ماذا قد يضاد رغبة الإنسان في التغلب وتلك الرغبة هي التي يكمن فيها بصورة أو بأخرى ظهور العدو المشترك الذي يسعى إلى الانتقام منا جميعا؟ ماذا قد يضاد هذه الرذيلة التي تعود في معظم الأوقات بضرر على الفئة الضعيفة في المجتمع إلا أنها ستعود هذه المرة بضرر على الجميع.

ولا ينكر أحد أن رذيلة التغلب تضادها فضيلة الصحبة، ومن مطالب الصحبة الاعتراف بأن الآخر يستحق الاعتناء والانتباه. هل يستعد أحد للصحبة ولا يستعد للاعتناء بالآخر والانتباه إليه؟ ذلك من جهة ومن جهة أخرى من يقرأ التاريخ قراءة فاحصة يكتشف أن السبب وراء بقاء المجتمع ونمائه هو نزعة الإنسان الى فضيلة الصحبة وتقديمها على رذيلة التغلب وإن توهمنا العكس. وتكثر الأمثلة أمامنا من حيث دلالتها على الاستقرار والازدهار الذي طال المجتمعات بسبب الاعتناء والانتباه القائم فيما بين أعضائه عند الضراء وعند السراء على السواء.

وبخصوص الأزمة اليوم فإني لا أتكلم عن الصحبة على مستوى الفرد لأن ذلك يجري مجراه تلقائيا وإنما أطرح السؤال التالي : هل يمكن دمج نزعة الصحبة في مجالات الحياة كلها حتى تكون هي النزعة التي تغلب على عقول الجميع بدلا من نزعة التغلب؟ لا أدعو الى القضاء على الأسواق الحرة وما إلى ذلك من مساعي الإنسان إلى التطور والإبداعية. أطرح سؤالا فقط يخص النزعة التي نريد أن تسود في حياة البشرية.

فأنا بصفتي أستاذا في الجامعة حين يزورني الطلبة الذين يوشكون على التخرج أطرح عليهم دوما السؤال التالي : لأي مقصد كوّنتكم الجامعة؟ ويردّون دائما : التفكير في القوة إما بصورة إيجابية وإما بصورة سلبية. بالفعل ينبغي تنبيه الطلبة على سبل القوة لأنها لن تزال، لذا فلا بد من إتقان التعامل معها. لكن، مع ذلك لا يحسن اعتبار تكوين الطلبة لا يقصد إلا إلى توجيههم نحو رذيلة بدلا من فضيلة. ألا يمكن دمج دراسة الصحبة في التكوين المدرسي والجامعي بما في ذلك الالتفات إلى فعاليتها في تنمية المجتمع وكذلك تأثيرها على تقدمه ماديا ومعنويا على السواء بالإضافة إلى دورها في تحسين الطرق التي تصبو إليها المنظمات والشركات لجلب مصالحها. مما لا شك فيه أن من يتقن سبل الصحبة هو أقدر على تلبية حاجات المجتمع وأقدر على جلب الرفعة للجميع وعلى حفظ كرامة الجميع.

الغريب في الأمر أنني لم أسمع أبدا وإلى حدود اليوم عن مادة في جامعة من الجامعات يدرسون فيها الصحبة لا بكونها رابطة تجمع بين فردين فقط بل بكونها قوة فعالة تترك آثارا واسعة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك بكونها سببا من أسباب استدامة الإنسانية عموما واستدامة تعاملها مع البيئة على وجه الخصوص. لن يظل شيء بعد الأزمة كما كان قبلها. فهل سنكون حينها قد تعلمنا الدرس بأن الفضائل وعلى رأسها الصحبة لا غنى عنها في حفظ المجتمع وتنميته بل وحفظ إنسانيتنا. فالفضائل لا تتناقض وسبل التقدم بل تترابط، الأمر الذي ستكشف عنه هذه الأزمة.

ماذا سنفعل استجابة لهذه الحقيقة؟ ماذا ستفعل – ماذا ستفعلين – استجابة لها؟ أما أنا فسأستمر في لفت الانتباه إلى فضيلة الصحبة وضرورة دمجها في الدراسات الجامعية في كل ميادين العلم، وذلك تكوينا للطلبة في معرفة ما تجلبه الصحبة من خير في كل مجالات الحياة.

الكورونا والحركة نحو الإنسانية أو الكورونا لا تقتل على الهوية

د. محرز الدريسي

باحث في الشأن الثقافي والتربوي، تونس

"الأزمات القاسية مثل حمامات السباحة الباردة، علينا دخولها والخروج منها بسرعة كبيرة" نيتشه

يعترض كل منا خطابان في مقاربة جائحة الكورونا، خطاب يحتمي تحت مطرية الوقاية وتفاصيلها التحسيسية الطبية والميديانية، يرافقها فلكلور شعبي في ثنائيتين، حماية غذائية مزعومة (الثوم والبصل والزنجبيل...) وحماية روحية بكثافة الأدعية المباشرة وحتى الالكترونية تصل إلى حد التواكل لا التوكل وهو خطاب يخترق كافة الفئات دون استثناء تقريبا. أما الخطاب الثاني فهو استشرافي لما بعد الكورونا، ويفكر فيما بعد نهاية هذه الجائحة الوبائية والانتصار عليها. بين نقطة بروز الفيروس أو انفلاته/ توظيفه ونقطة نهاية الفاجعة تطرح أسئلة، أن نتأمل في هذا الوباء/ الكارثة، من جهة أولى ما يبذله العلماء من سباق حثيث لاكتشاف الدواء المعالج وإسدال الستار عن هذا الحدث/ الفاجعة، وما يتيحه من مساحات تدبر وتفلسف وتفكيك واستعمال "المعول" بعبارة أحد الأصدقاء في مفاهيم نتعايش معها ويبدو أنه آن الأوان للتحرر من سلاسلها .

فهذا الوباء البغيض والعدو الإنساني، ماذا لو نظرنا من ثقب الكورونا وتحولت من نقمة إلى نعمة، وفرصة، إن الأوبئة "فرصة فردية" و"فرصة مجتمعية" و"فرصة للإنسانية" و"فرصة تاريخية". على كل منا الالتزام بالقرار الصحي وملازمة البيوت والاستمرار في المقاومتين الإيجابية والسلبية، مقاومة مسلحة بالأدوات الطبية والصحية وقرارات العقل السياسي، ومقاومة سلبية لا تختلف عن الغاندية في

جدواها ونتائجها الوقائية. ستكون فرصة تاريخية ومساحة لتدبر ما نعيشه، بخوفنا وفزعنا وما فرض على الناس من إجراءات وقائية وتوصيات حمائية، وتحفزنا للسؤال عن الموت والحياة والعلم والقيم والإنسان والاجتماع البشري .

الكورونا الوباء البغيض والعدو الإنساني، حصد ويستمر في حصد أرواح ألاف البشر، قد يكون الرقم أدنى من قتلى حوادث السيارات (55 مليون سنويا) أو التدخين يقتل 8 ملايين سنويا، إلا أنه عدو يهاجمنا من كل حدب وصوب، لم نختره مثل التدخين أو السياقة، ولا نستطيع رؤية الفيروس ولا سماعه، بل لعله في جسمنا أو في جسم أحبائنا، هذا ما يجعل منسوب التوتر يرتفع، ونعجز عن مواجهته وجها لوجه، وقد يوجد في كل مقبض أو في كل باب وفي كل طاولة. زعزع هذا الخوف الشديد من العدوى " أمننا الأنطولوجي" بعبارة أنطوني غيدنس، ورج طقوسنا اليومية وضاعف من حالات اغترابنا.

ولكن ماذا لو نظرنا من ثقب " الكوفيد19" وحولناه من نقمة إلى نعمة، وفرصة، إن الأوبئة "فرصة فردية" و"فرصة مجتمعية" و"فرصة للإنسانية" و"فرصة تاريخية". ومع ذلك علينا الالتزام بالقرار الصحي وملازمة البيوت والاستمرار في المقاومتين الايجابية والسلبية، مقاومة إيجابية مسلحة بأدوات التنظيف (الصابون وغيره من مواد) والإصغاء للنصائح الطبية والصحية وتنفيذ قرارات العقل السياسي، ومقاومة سلبية لا تختلف عن الغاندية في جدواها ونتائجها الوقائية بممارسة الدرجة الصفر من الحركة.

الكورونا وباء بدني وهو نافذة للتأمل، في التفاصيل كما في المبادئ، من غسل اليدين بالماء والصابون وطقوس النظافة الجسمية والبيئية، إن الأزمات تنسج سلسلة القيم. يشمل التأمل الأول الفردية بالاشتغال على الذات وهندستها من جديد وتجفيف أدرانها وتعضيد بناها وتجفيف منابت أنانيتها وتورم الإيغو (Ego)

والتحليق عاليا مع السحب العابرة وحتى مع الصقور فوق الجبال، فرز ذاتي من أجل إيجابية الداخل الإنساني واكتشاف ما تختزنه من تسامح وعفو وغفران ورحمة وتنوع واستقلالية وتضامن وروابط تغير الأنماط الشخصية وملامحها. وتهم الفرد/ المواطن كما تستفز السياسي وأصحاب الأموال والأقلام والمنابر ، لنزع الأقنعة الوظيفية والأدوار المجتمعية والالتقاء في دروب لائقة وشريفة حول الحقيقة التي لا حقيقة قبلها أو بعدها "**إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**" لا بمعناها الديني التوظيفي في درجته الدنيا وإنما بحرارتها الروحية وأخلاقية الطهارة والنقاوة دون وسائط حزبية أو فئوية أو رايات الاحتكار المتراكمة.

وهي "فرصة" لإعادة أو قراءة متمعنة وبطعم جديد لقصّة "الطاعون" "لألبير كامو" وفهم تشابك الوباء والاستبداد، وقصّة "الحب في زمن الكوليرا" "لغابريال غارسيا ماركيز" وأفلام حول فيروسات (الأوبئة- الفساد- الإبادات الجماعية- وحشية الاستعمار...)، إنها "نعمة" تضاف لطقوس النظافة المكثفة والطهارة البدنية والروحية ولحظات ترتيب الذات وتوجيه اهتماماتنا ومنحنا قطعة من الزمن الشخصي للتأمل والمراجعة والنقد الذاتي والتخطيط والبرمجة، وتحويل الزمن السائل إلى زمن "ينفع" و"وقت مفيد" ومرتب ومهيكل.

يطرح التأمل الثاني أن الكورونا كشفت زيف الجغرافيا والحدود والفواصل والستائر الجمركية وزيف المعابر والعساكر والأوراق، فقد تخترق من رحلة ما أو لمسة أو قبلة عفوية وتفتك بالإنسان/المجتمع دون فرز، وتقتله دون التثبت في جنسيته أو جواز سفره أو هويته. فالفيروس لا يميز بين سكان الشمال أو الجنوب أو بين مواطني الغرب أو الشرق، تمنحنا درس نبذ التمييز والتفرقة والإقصاء...بما ييسر للمجتمعات أن تعيد اكتشاف بوصلتها في خضم الفوضة العارمة، ومواجهتها بتوضيب الأدوار والاعتراف المتبادل وشذب علاقات المركز والأطراف وإزاحة

معايير المقدسات ونمطية القيم من أجل هندسة جديدة للانتظام الاجتماعي، وتلقيح رحم المجتمعات/ مجتمعنا ليرنو نحو الغناء ويتعالى عن الطبقية والنفعية والصراعية والاحتماء بمتاريس الوصم والفرز والتصنيفات الاجتماعية أو الجهوية أو العشائرية أو العقائدية والجغرافية.

وتحرير "التابع" بعبارة المفكر الهندي رانجيت غوها أما آن للتابع أن يتكلم وأن يتحرر؟ أما آن لسكان الأطراف تجاوز اغتراب التاريخ والجغرافيا؟ أما آن للجراح أن تلتئم من الكولونيالية وثنائيات الشمال/ الجنوب والشرق/ الغرب والعوالم الثلاث، بدت الآن عالم واحد أو أشلاء جغرافيا متناثرة، إنها صدمة قاسية وقد تكون أقسى مما كنا نتصور، أرصدتنا الإنسانية التي تآكلت وآدميتنا المنفلتة، ولعله انتقام الطبيعة، في مراجعة مفهوم "التقدم" وإيديولوجية انتقدت فلسفيا وتمارس فعليا، إنه صراع محموم من أجل الثروة . هل هي نهاية التاريخ لا بانتهاء الصراع وسيادة الليبرالية، التي تأكل أبناءها وشيوخها الذين بنوا "مجد" أوروبا وأمريكا من عرقهم، حين نصل إلى الطب الحربي نعلم أننا بلغنا ذروة قبحنا الإنساني.

ونتوقف في التأمل الثالث حول دلالات تهاوي عدد مهم من البراديغمات أو دخلت هي ذاتها في نوع من الحجر الأداتي والتحليلي (العقم) شأن النزوعات الهووية والحداثوية، توارت خلف الفزع والكارثة والعدمية وكمنت في جحورها/ عرينها (لا فرق في الراهن ما بين أن تكون فأرا أو أن تكون أسدا). ما يثلج الصدر تواتر الأخبار الايجابية عن نزوعات الخير الكامل في مواجهة الشر المطلق، من مبادرات أصحاب القلب الكبير والحكمة واعتراف بلباب الإنسانية ورحيق الكونية. الكورونا ليس "فيروس" فحسب وإنما "مفهوم" يتشكل ويشكل، لا ينفصل الجسم اللامرئي والمخفي عن تشبيك اللامرئي والمخفي، تنتج لحظات تفكير/ تأمل نعيش من خلالها فينومينولوجيا ما معنى أن أعيش؟ ما معنى أن أحيا؟ ما هي قيمي؟ ما معنى أني

إنسان؟ تجاوز معنى العقل إلى سؤال ما معنى الإنسانية؟ وما معنى البشرية؟ وما معنى الخصوصية والكونية؟ أمام آلاف الأموات التي حصدها "الفيروس" نطرح سؤالا هل نعيش فعلا الآن في عصر مستنير؟ ألم "يفضح" هشاشة الإنسانية ولزوجة الحداثة ووهم ما بعد الحداثة، مفاهيم المتعة التحليلية تتقلص لتبحث عن مفاهيم الجدوى الحمائية، ونحن لا نواجه الموت الفردي -وهو حق- بل نواجه الموت الحشودي والفناء الجماهيري، لحظة نوح دون سفينة.

ستسرع الكورونا صياغة حياتنا الأخلاقية وتقفز إنسانيتنا من على ظهر المرض والوباء لإنتاج معنى وشذب أغصان الدلالات الفاسدة العالقة في سطح بشريتنا المشوهة، برزت وتبرز في الاستعمار وتقسيم الشعوب وقطع أوصال التواصل واغتصاب الجغرافيا والقارات وتدمير الثقافات ونهب الثروات وتسميم البيئة وفسخ الامتياز الأخلاقي، وترسيخ التفاوت الحضاري، وطمس الإنسانية والتنوير والنهضة.

إن حلحلة الهيمنة وانزياحها نحو السيطرة وتقطع سردية المرض تشمل الفردية لتنحو نحو الجماعية، وتنسج روحا جديدة وأقانيم وحدة آدمية أو الهجرة إلى لب الإنسانية الساكنة فينا. أمام الهجمة الشرسة للفيروس والأعداد الكبيرة من المصابين، من المجدي التعاطي مع عدوى المرض لا كفكرة عامة بل باعتبارها قوّة فاعلة وعنصر "تغيير" ميتافيزيقي ، العودة إلى المتعالي والمفارق والمتخفي لا في السماء وإنما في الأشياء، "فأينما تولوا وجوهكم فثمة الكورونا" و"هي أقرب إليكم من حبل الوريد" قد تكون في أي جزيء من الأشياء التي قد تفتك بنا. سينتصر الإنسان على الكورونا وسيصنع الأدوية والتلاقيح ويرفع رايات النصر بلا شك بتظافر وظيفي بين العقل الطبي والعقل الجماعي والعقل التخطيطي والاعتراف المتبادل بالأدوار وأهميته في هندسة الوجود الاجتماعي.

لا معنى للدولة حين بدت تحكيم خاوية إلا من معنى العنف القانوني، دول وأساطيل وجيوش مرسومة في الرمال، فالمبتغى انتصار الوعي الجماعي والبشري والانتقال من المجتمعية إلى الإنسانية لا الإنسانوية المحلقة والمتبخرة حقيقة، بل إيلاء الأولوية المطلقة للتربية والصحة. والتحرر من الاغتراب والعودة الى جوهر الإنسان، والانتقال من التصنيف الطبقي الى رص التصنيفات ورتقها . إن الإنسان بوصفه هذا الإنسان ليس هذا الإنسان المفرد وحده، فهو يقف بجانب بشر آخرين ويغدو واحدا من الحشد. والتحرر من الوعي الشقي الذي يسكن كل فرد وكل مجتمع، وتجاهل الآخر والعودة الغنية إلى الغيرية. يكون بنقد المركزية الأوروبية والعودة إلى مركزية الإنسان، ونقد مزدوج، "خير أمة أخرجت للناس" هي الأمة التي تقاوم الفناء ولا تستسلم، تحارب العدم ولا تتلاشى، وتتجاوز وعيها الغامض، إنها الأمة التي تخدم الإنسانية وتتاخ عنها. وتستلهم من قعر الوباء، معايير نهضتها وصمودها ومدها يد المساعدة للآخرين.

الحرية ليست الصندوق بل الدولة بالمعنى الهيغلي بما هي تجسيد للعقل الكلي، وتغذية لفكرة التكاتف والتعاضد، و"الجسد الواحد"، وأن أفيون الشعوب والمجتمعات هو الكسل و اللا عمل و اللا اجتهاد والعطالة في اليد وفي التفكير وفي الخيال وفي جفاف الوجدان والعاطفة، هذه العناصر هي التي تتيح لنا أهلية الدخول إلى عالم البشر. تبا لنا ما لم نصنع من محنة الفيروس ومن فزعنا وجزعنا ورعبنا طاقة ننسج منها عودتنا الواثقة إلى الإنسانية.

إن سمفونية الحياة المقاومة وصخبها وهمساتها، وابتكاراتها وانضباطنا داخلها، لا تنفصل فيها الوطنية عن الإنسانية جمعاء. لا أدري لماذا أستعيد شكل إنسان ما قبل التاريخ وصورته وهو يوجه العواصف والأعاصير والحيوانات المفترسة وخوفه حرك التاريخ وأنتج الثقافة وبنى الحضارات وأنتج أدوات الإنتاج وساهم في ارتقاء

البشرية وأسس الدول ونوّع السيطرة، إن لحظة قسوة الكورونا مثل لحظة الحاجة إلى اكتشاف النار/ الحديد/ العجلة/ البخار/ النانو... تسعى إلى مواجهة الإحراجات واختراقها شأن سلعنة الصحة والتعليم، يجعل من النقمة قد تحول إلى نعمة أو التحرك نحو الإنسانية. إنها وضعية بيوسياسية، يوضحها كتاب (comment tout peut s'effondrer ?) لكل من (pablo Servigne et Raphael Stevens) يتناولا فكرة (collapsologie) أي إمكانية انهيار حضارتنا الإنسانية وسقوطها كقطع الدومينو، يمكن أن تتم في لمح البصر، ليس نتاج هجوم الزمبي ولا الكتب المقدسة وإنما حين لا تلبي الحد الأدنى من الحاجيات لأغلبية السكان وتقديم الخدمات، ونهاية مجتمع الوفرة ونمو اللا محدود.

تعود هذه الفكرة إلى سنة 1972 في تقرير (Meadows) بعنوان (the limits to Growth) الذي تمت صياغته من قبل الباحثين في نادي روما الذي نبه إلى المخاطر المحدقة، لا نعلم من سيطلق البداية انهيار البورصة أم كارثة طبيعية أم انهيار التنوع البيئي، أو كارثة فيروسية. لذا يحلل (Frédéric Keck) في مؤلفه (Les sentinelles des pandémies) كيف نتفاعل مجتمعاتنا مع الأوبئة، وأنه عوض الاستسلام إلى الخوف الشديد، يدعونا إلى التفكير في العولمة وعلاقتنا بالطبيعة. فالأوبئة تقلب المجتمعات لا لأنها تقتل الأفراد بالآلاف وإنما لأن العدوى تحدث الفوضى والاضطراب والحذر الشديد، علينا الاستعداد للعيش في هذه العواصف، وتنمية مقاومة المجتمعات ومناعتها. وتتطلب "لوجيسيال" سياسي عالمي جديد، كما يذكر مارسال غوشييه خصوصا وأن الأزمة كشفت أن الواقع عبارة عن توازن لا يستقر أبدا، وأنها تعري تداعيات مغلفة كالدمى الروسية.

إنها تحولات لا ينبغي أن نرى فيها نهاية التاريخ ولا أن نجعل منها مقبرة الأمل، بل فحص العمق والسطح أو الهام والمبتذل، وخلق مجالات جديدة للتفكير

والتعبير والتواصل، وتنظيف الجسم مدخل لتنظيف الجسد، وأن الصابون ليس مجرد شيء أو أداة بل أصبح طقسا من طقوس إنقاذ الحياة الفردية والمجتمعية واستمرارها، وعقلنة النظافة من عقلنة المجتمع، وعقلنة المجتمع من عقلنة البقاء في البيت، "فالبيت جسد لا عضوي للإنسان" كما يقول ماركس.

فيروس كورونا من الأنا إلى النحن

ذ. حمزة بومليك

باحث في الفلسفة، المغرب

"عش واترك غيرك يعيش"[1]

الوباء بشكل عام، ما هو إلا امتحان لمعرفة مدى مناعتنا وقدرتنا على تجاوز المحن، والمحنة هنا تتجاوز كل ما هو مادي إلى ما هو نفسي. لأن توهم فكرة المرض أخطر من عيش تجربة المرض بكثير. وهو نداء مجهول يدعونا إلى عقد الصلح مع الآخر، فأن أحيا في العالم لا يعنى ذلك أنني سأحيا بدون الآخر، وإلا فما الذي يجعلني أستشعر قيمتي، فالأكيد أنني بدون هذا الغير لا يمكنني معرفة من أنا، أي أن وجودي ليس وجودا ماديا وحسب بل هو وجود تفاعلي يشترط توفر الأنا الذي ليس أنا، بهذا المعنى تصبح ذاتي أمام ذات أخرى أقيس عليها محاسني وعيوبي، وكذلك تفعل الذات الأخرى بدورها، الأمر هنا أشبه ما يكون بـ العلاقة التي تجمع الطفل بالمرآة حسب نظرية التحليل النفسي عند جاك لاكان، بحيث يتم للطفل التعرف على ذاته من خلالها. إننا وإن اختلفنا فيما بيننا، إلا أننا نعيش كلنا في عالم واحد. فشرط العيش هنا هو النحن بدل الأنا. لكننا ننسى ذلك وربما نتناساه وهذا ما يجعل القضية أكثر غموضا.

وُسم الإنسان بميسم الأنانية والعيش في معزل عن الآخر فكان أن تشكلت بينهم الحواجز والمسافات. وأضحى الواحد يرمق الآخر بنظرة الحقد والعداوة، لذلك

[1] - فن العيش الحكيم، آرتور شوبنهاور، ترجمة عبد الله زارو، منشورات ضفاف، ط1-2018 ص227.

طُبع تاريخ الإنسانية بالصراع واللاتوافق. أن أعيش في العالم الأمر مشروط بضرورة الانتماء لطرف ما -وإن حصل العكس نكون أمام حالة مرضية أو شاذة- وكأننا أمام إنسانيات وليست إنسانية واحدة، وهذا ما لا يتماشى وجوهر الخلق الذي يهدف إلى التعاون بوضع خطة للعيش معا.

عملا بقاعدة أننا نحيا جميعا وسنموت جميعا، و انسجاما مع تفشي وباء الكورونا تسلل إلينا وعي ما بضرورة مواجهته معا، فالوضع أكبر من أن يُواجهه الأفراد كما أن خطورة هذا الوباء تكمن في أنه يعرف الانتشار كلما تهاون الأفراد في التصدي المشترك له، لقد شاءت الطبيعة بعد مشيئة الله أن تعطينا درسا لائقا في ما يخص ضرورة العيش المشترك، فعلى المستوى التاريخي مثلا؛ لم نتوافق الإنسانية إلا في الحالات التي يكون فيها العدو خارجي أو طبيعي يتهدد الجميع.

من إرهاب التطرف إلى إرهاب الكورونا

لا غرو في أن العالم ما قبل كورونا، عاش ظروفا صعبة من حروب ومجاعات وكوارث طبيعية، غير أن ما شغل حيزا مهما من تاريخ ما قبل كورونا هو التطرف الذي عانت من ويلاته العديد من البلدان، وهو الذي رسخ هاجس الخوف والهلع لدى فئة كبيرة من الناس، وهنا نتحدث عن التطرف الديني الذي راحت في سبيله العديد من الأرواح، ولازلت جروحه لم تلتئم بعد، ومن المؤكد حقا أنها ستترك في الذاكرة الجمعية ندوبا لن يمحوها التاريخ، وهو الشاهد على تكرار المآسي منذ كم سنة إلى اليوم.

لقد عاش العالم العديد من صور المحن، لكنها لم تزد الإنسان إلا مناعة وإصرارا على مجابهة كل النوائب التي قد تجود بها الحياة، فالأكيد أن التجارب الحياتية تُكسب الإنسان المناعة على حد تعبير (سينيكا)، وهكذا كان على الإنسان

أن ينتظم بفعل هذه الكوارث فتاريخنا لا يحتفظ فقط بالصورة الجميلة بقدر ما يحتفظ كذلك بالعديد من المحطات السيئة.

إن القاسم المشترك ما بين التطرف الديني وفيروس الكورونا هو الخوف من المجهول، والتوجس في كل لحظة، إنها حالة أشبه ما تكون بالوسواس القهري الذي يعاني منه المريض النفسي، بحيث يصبح له شك مفرط في كل شيء غير أن الاختلاف الحاصل مابين التطرف الديني والفيروس هو أن هذا الأخير أصبح بين ليلة وضحاها عدو مشترك بين كل الشعوب، وهي وضعية قلما آل إليها الإنسان المعاصر، إذ ارتبط مسار الإنسانية بالصراع والعنف، فكان عليه انتظار هذه الجائحة التي أعادت الإنسان إلى أصله الأول وهو حب الخير للغير. الأمر الذي أسهم في يناعة نوع من التعايش واقتسام ألم المحنة، وهذا من حسنات الفيروس إن صح الحديث عن حسناته.

الوباء فرصة لتقدير الذات

شكل الوباء فرصة سانحة أمام الإنسان لإدراك قيمته بالعودة إلى الذات، فبعد أن فقد الإنسان البوصلة في زمننا الراهن، عاد إلى إحكام القبضة عليها من بوابة هذا الوباء الفتاك، الذي أعاد للإنسان مصالحته مع ذاته، والأدهى من ذلك أنه تمكن من إدراك قيمته وأهميته في ظل هذا الوضع الذي أشكل على الإنسان تجاوزه.

في كتابه فن العيش الحكيم يقول شوبنهاور: "إن النعم الذاتية هي التي تدل بحضورها على توافر أسباب وموجبات السعادة، وتشمل الطبع النبيل والعقل الراجح والمزاج الرائق والنفس المرحة والجسم السليم. ومن أوجب الواجبات علينا أن نصون هذه النعم ونميها بدل اللهاث وراء النعم الخارجية ومظاهر الشرف

والأبهة"[1]، فكل الرغبات التي يتطلع الإنسان إلى كسبها هي تسكنه على نحو ما، لكنه يجهلها أو يتجاهلها، وبالتالي فقط نحتاج إلى محن وفتن كبرى تعيد إلينا كل الوشائج التي تربطنا بذواتنا والتي ضيعناها. نحتاج إلى إعادة تقييم النعم الذاتية حتى نقدر ذواتنا حق قدرها، بمعنى أن ما يتعلق بالذات هو الذي من المفترض أن يتغياه الإنسان، وطبعا هذا لا يحدث إلا في الحالات التي نحقق فيها أكبر قدر ممكن من الوعي بقيمة من نحن، فمعرفة الذات هي الأخرى لا تتم من خارج الذات، تماشيا مع قول سقراط "اعرف نفسك بنفسك" فأنا من يجذر بي أن أفهم ذاتي وليس الآخر، إننا لسنا أمام أخصائي التحليل النفسي بحيث يجلس المفحوص أمام المحلل النفسي ليخبره عن أشياء يجهلها هو عن نفسه، بل نحن في مواجهة أنفسنا وبالتالي علينا التشخيص والعلاج في نفس الآن.

لقد كان على الإنسان انتظار مجيء هذا الوباء للوعي بمدى قيمة ذاته والعودة إلى تقدير الذات، فلا يختلف اثنان أننا استشعرنا والعالم بما لا مجال فيه للشك أننا نعيش غربة مع ذواتنا، فاهتماماتنا بتفاصيل العيش عرضتنا للتيه بشكل أو بآخر عن الجوهر الأساسي وهو فهم الذات وبالتالي البحث عن المصالحة، ففي وقت الأزمة أصبحت ذات الإنسان هي أغلى ما يملك، وبالتالي نفتعل كل ما من شأنه أن يدعنا أحياء، ولأرسطو قولة بليغة في هذا الشأن: "الأشياء عارضة والطبيعة سرمدية"[2]، ففي الوقت الذي استشعر فيه الإنسان خطر الموت، أصبحت كل الأشياء التي حققها والتي يرغب في تحقيقها غير مرغوب فيها، ولا تحمل أية قيمة، فالواقع أن الإنسان في المحنة يستشعر قيمته، والموت باعتبارها النهاية التي نخشاها بالرغم من إيماننا بحدوثها، تجعلنا نعيد النظر في تصوراتنا للعالم. فللموت إذن هذا

---

[1] - بناء الكون ومصير الإنسان، هشام طالب، دار المعرفة، ط1 -2006 ص 167.

[2] - فن العيش الحكيم، آرتور شوبنهاور، ترجمة عبد الله زارو، منشورات ضفاف، ط1-2018 ص30.

الفضل كونها تضع الإنسان أمام اختيارين لا ثالث لهما، فإما النجاة وإما الهلاك، "وتبدأ هذه الحقيقة، التي لا اسم لها سوى الموت، في إقلاق هؤلاء البشر الضعفاء... "[1]. الوباء شكل مظهرا من مظاهر النقص في الوجود، وأعطى فرصة سانحة لربط الوشائج مع ذواتنا وعليه "فالتعايش لا يتم خارج حدود أنفسنا بل داخلها"[2].

بما أننا "لا نرغب إلا في الأشياء التي تنقصنا" كما يقول أفلاطون، فإننا لا نعجب من أن الرغبات التي كنا بالأمس القريب نرغب فيها، قد انتفت أو عُلقت إلى أجل غير مسمى، أمام رغبة العيش، فلا وجود لأي رغبة أكبر من الرغبة في الحياة. كما أننا في ظل هذا الوضع المأزوم أدركنا أن ما ينقصنا حقا هو النحن بمعنى علاقتي مع الذوات الأخرى أما الحاجات والرغبات الخارجية تبقى ثانوية بالمقارنة مع الذات والذات المقابلة، فكم من حاجة لسنا بحاجة إليها.

في نهاية المطاف تبقى هذه العودة محمودة، إنها تدخل في إطار رد الاعتبار للذات فهي الأصل الذي وجب السعي من أجل الحفاظ عليه، وقد وعى الأنبياء و الفلاسفة والمتصوفة قيمة الذات لذا نجدهم حققوا تلك المصالحة مع ذواتهم، وهي دعوة إلى "وجوب الاكتفاء بالذات، أي أن يجد المرء في ذاته كل ما يبتغيه: "فالسعادة هي من نصيب المكتفين بذواتهم"[3]. كيف ما كانت الأسباب تبقى لهذه المصالحة مع الذات، دورها في خلق نوع من الاستقرار النفسي والاجتماعي فقبولنا

[1] - نفسه فن العيش الحكيم، آرتور شوبنهاور، ترجمة عبد الله زارو، منشورات ضفاف، ط1-2018 ص30

[2] - مفارقات للسعادة لوك فيري، ترجمة ايمن عبد الهادي، التنوير للطباعة والنشر، ط1-2018 ص202.

[3] - الهجرة إلى الإنسانية، فتحي المسكيني، منشورات ضفاف، منشورات الإختلاف، ط1-، 2016، ص40.

للآخرين ما هو إلا تأكيد لقبولنا لذواتنا والرضا عنها، ف "كل الشرور مصدرها عدم الاختلاء إلى الذات والاكتفاء بالنفس"[1].

كورونا وأفق المشترك الإنساني

إن الانتقال من الأنا إلى النحن أو التفكير في المشترك الإنساني هو هم طال انتظاره حقيقة فبالرغم من تزايد عدد الشعارات الدولية المطالبة بذلك، إلا أنه ظل مطلب تعذر على الإنسان تحقيقه اللهم في زمن الوباء، فأن يرتبط فعل المشترك الإنساني بوباء، كان من الأمور المستبعدة عن المخيال الإنساني، ولم يكن أكبر المتفائلين ليفكر في ذلك، لكن الذي حصل هو: انسلاخ وتخلي الإنسان عن أنانيته وأصبح يتملكه هاجس الآخر، ولنا في الحالة التي وصل إليها العالم اليوم أكبر دليل على ذلك، فالعديد من المبادرات أطلقت متجاوزة بذلك الحدود الجغرافية، وبالتالي فالطبيعة حققت ما عجز الإنسان عن تحقيقه، هي إرادة مجهولة تدفع بالإنسان لفكرة العيش معا، لاحتواء الآخر بالرغم من الإخلاف على مستوى الفكرة والمعتقد والجنس...، فدول لم تكن تسمح بالجهر بمعتقدات الآخر المخالف ودين الأقليات، أصبح يتملكها اليوم وعي بذلك، ودول كانت إلى الأمس القريب تعتبر نموذج للتحضر باتت اليوم تستنجد بدول أقل حضوة منها، لقد خلق الوباء نوعا من التمرد على القواعد التي وضعها البشر سلفا، فلم يعترف بالقوة الاقتصادية ولا العلمية، لذلك تملك الإنسان هذا الشعور بالانتماء للإنسانية، وبالتالي مواجهته بالنحن بدل الأنا.

إن من حسنات الوباء أنه وحد كل الشعوب وجعل الهاجس الوحيد والأوحد هو تجاوز هذه الأزمة، التي تشترط بدورها نوعا من التوافق بين كل الشعوب، فمن الواضح أن الأزمة بهولها لا يمكن أن يتجاوزها الأفراد، فهي هم

[1] - فن العيش الحكيم، آرتور شوبنهاور، ترجمة عبد الله زارو، منشورات ضفاف، ط1-2018 ص181.

مشترك بين بني الإنسان، وبالتالي العيش معا يفضي بنا إلى مواجهة الأزمة معا، وهذا مبلغ الإيمان بالمشترك الإنساني. فإما أن نموت جميعا أو أن نحيا جميعا، "وهكذا يجد التعايش مقامه المناسب هو أن نلتقي الغير فيما أبعد من قدرة الأنا".[1]

ولما كان من الصعب على الإنسان "أن يكون الشخص الواحد موضوعا للتقدير والحب في آن واحد"[2] كان عليه البحث عن الآخر ليضفي على وجوده الرونق المفقود، وهي فكرة تهدف إلى مد جسور التواصل والتفاعل بين بني الإنسان، وأضحت مطلبا مُلحا في وقتنا الراهن، الذي فيه ما فيه من السجالات والصراعات التي منبعها يعود إلى أصل واحد وهو التعصب (تعصب للفكرة-للمعتقد-للجنس...)، وبالتالي فالتعايش أصبح مسألة راهنية، ولعلنا اليوم أمام صور متعددة لتحقق هذا المطلب في أرض الواقع، ففيروس كورونا أسهم بشكل أو بآخر في تعميق الوشائج بين بني الإنسان، لمواجهة عدو واحد وهو الفيروس، وبالتالي تحقق الانتقال من الأنا إلى النحن، فما يهم الواحد فينا أصبح يهمنا جميعا، لنقل إذن أن الإنسان يحن إلى الإنسان كلما كان حجم الخطر أكبر، أو في الوضعيات التي يكون فيها العدو واحد وهو الطبيعة والبحث عن السيادة (السطوة على الطبيعة).

هكذا إذن يمكن اعتبار الوباء محطة من التاريخ تستوجب منا استخلاص الدروس والعبر، فإنسانية الإنسان فوق كل اعتبار، وهي دعوة لبداية عهد جديد، يؤمن بضرورة الآخر، فمتى تشكل لدينا الوعي بضرورة الغير نصبح قادرين على تجاوز كل الأزمات كيف ما كانت طبيعتها، فالتفكير في العيش المشترك اليوم أضحى غاية مشتركة، وبالتالي وجب التفكير في استراتيجيات استمرار هذه الغاية حتى بعد

[1] - الهجرة إلى الإنسانية، فتحي المسكيني، منشورات ضفاف، منشورات الإختلاف، ط1- 2016، ص40.

[2] - فن العيش الحكيم، آرتور شوبنهاور، ترجمة عبد الله زارو، منشورات ضفاف، ط1-2018 ص181.

انتهاء هذه الأزمة، على اعتبار أنه ضرورة عيش لا يرتبط فقط بلحظية وزمن الوباء وإنما بسيرورات الحياة.

إن التفكير فيما بعد كورونا ما هو إلا محاولة للتخلص من ربقة الحاضر ومن هذا القلق الوجودي الذي بات يتهددنا، إننا لم نعد نقوى على عيش الآن بتفاصيله المملة والمقلقة، لذلك نبني وهم الإنعتاق من شراك الفيروس وعناق غد أفضل قد يأتي أو لا يأتي، لكننا نأمله حقا.

لائحة المراجع

- فن العيش الحكيم، آرتور شوبنهاور، ترجمة عبد الله زارو، منشورات ضفاف، ط1-2018 ص227.
- بناء الكون ومصير الإنسان، هشام طالب، دار المعرفة، ط1 -2006 ص 167
- مفارقات للسعادة لوك فيري، ترجمة ايمن عبد الهادي، التنوير للطباعة والنشر، ط 1- 2018، ص 202.
- الهجرة إلى الإنسانية، فتحي المسكيني، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، ط1-2016، ص40.

الجوائح في الأزمنة المعاصرة

رؤى دينية وفلسفية

في لحظة الأزمات تُمتحن الإنسانية دوما في رؤاها وفي مناهج تفكيرها وتدبيرها وأنماط عيشها، لقد فتحت جائحة كورنا آفاقا جديدة للفكر الإنساني للتأمل في وجوده ومآلاته والتفكير في أشكال معاشه وأنماط عيشه وطرق تدبيره، فتحت أسئلة عن الذات والآخر والمكان والزمان، أسئلة عن الدولة والمواطنة، أسئلة عن الصحة والجسد، أسئلة عن الطبيعة والإنسان، أسئلة عن الإنسانية في كل أبعادها الوجودية والقيمية والمعرفية.

أسئلة تُسائل إنسانيتنا في الخيارات التي اجترحناها وفي الطرائق التي ابتدعناها وفي العادات التي ألفناها و الأماكن التي بنيناها والعمران الذي شيدناه.

أسئلة كشفت أوهامنا حول ذواتنا و أوهامنا حول حضارتنا وتمدننا وتقدمنا، أسئلة كانت مدار اشتباك معرفي وفكري، تنوعت حولها الرؤى والمقاربات، ووضعتنا أمام محك النظر مجددا.



